دفاع عن التاريخ الإسلامي

المنهج الإسلامي

لدراسة التاريخ وتفسيره

دكتور

محمد رشاد خليل

دار المنار

القاهرة

١٫٧٥٠

هذا الكتاب

- عالج هذا الكتاب عدة قضايا ثارت حولها الشبهات قديما وحديثا مثل : قضية أهل السنة والجماعة ، والدور الحضاري للمسلمين ، والسلفية والعقل ، والسلفية والمنطق ، والمسلمون والمنهج العلمي . . .

- وقد حرص الكتاب على عرض وجهة النظر الإسلامية في هذه القضايا ، والتي تبطل القول بمصادمة الإسلام للعقل ، كما تبطل دعوى القائلين بأن الفلسفة الإغريقية تمثل الفكر الحر ، في مواجهة السلفية التي تمثل الموقف الجامد عند النصوص الحرفية للدين ، كما تبطل دعوى القائلين بأن المنطق الاغريقي يمثل منهجا علمياً للتفكير، وتبين أن المسلمين هم الأنصار الحقيقيون للعقل ، كما أنهم أول من أرسى قواعد المنهج العلمي في التفكير والبحث كما شهد بذلك المنصفون من المفكرين والمؤرخين الغربيين .

- كذلك دفع البحث الشبهات التي أثيرت حول الحقبة الأموية العباسية من التاريخ الإسلامي ، وهي الشبهات التي قصد من ورائها إلى التشكيك في صلاحية المسلمين لبناء مجتمع إنساني صالح على أساس من هدى الإسلام .

- وأبرز ما في هذا الكتاب أنه رسم ملامح المنهج الذي يجب اتباعه في دراسة التاريخ الاسلامي استرشاداً بمنهج المحدثين في تحقيق رواية الحديث ،ونقد رواته ؛ كما أنه رسم ملامح منهج اسلامي للتفسير استخلصت قواعده من الكتاب والسنة ، وحتى يكون المنهج عمليا طبق على بعض الوقائع لكي يتبين إلى أي مدى يمكن أن تبرز خصائص التاريخ الإسلامي الحقيقية عند استعماله . .

- وإنا لنأمل أن يكون هذا الكتاب مدخلا إلى فهم أفضل لتاريخ الإسلام السياسي والحضاري ، وهو التاريخ الذي تكاتفت جهود حاقدة وجاهلة في القديم والحديث على تشويه صورته ، الذي كانت الإنسانية وما تزال وستظل في أشد الحاجة إلى هدايته . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م



دار المنار للنشر والتوزيع
القاهرة ص . ب ٦١ هليوبوليس

دفاع عن التاريخ الإسلامي

المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره

دكتور محمد رشاد خليل
قسم الثقافة الإسلامية
جامعة الملك سعود

دار المنار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

. . . هذا البحث هو في الأصل مجموعة من المقالات نشرتها في جريدة الجزيرة السعودية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري رداً على مقال نشرته الجريدة تحت عنوان « الوحدة الإسلامية » في عددها الصادر بتاريخ ٩ من ربيع الأول عام ١٤٠١ هجرية ؛ وذلك بمناسبة مؤتمر التضامن الإسلامي الذي عقد في الطائف في هذا الوقت .

. . . ولقد أقدمت على إعادة نشر هذا الموضوع في كتاب نظراً لخطورته وذلك ليكون تحت أنظار الباحثين المهتمين بدراسة تاريخ الإسلام الحضاري والسياسي ، وكذلك الهيئات والمؤسسات العلمية التي لها صلة بهذا التاريخ ، وليكون بصفة خاصة تحت أنظار ناشئتنا من الشباب المسلم الذي يهمه أن يتعرف على تاريخ أمته على وجهه الصحيح ، ويهمه أن يتعرف على المسالك الصحيحة لتناول هذا التاريخ ، وكذلك على المصادر الصحيحة لدراسة هذا التاريخ وبحثه . .

. . لقد أعدت نشر هذا البحث بعد أن استبعدت منه ما لا يهم القارىء والدارس من الرد على المهاترات التي نشرها الكاتب على هيئة تهجم وتجريح شخصي ، وذلك لأني أرى أن الموضوع أخطر من أن يكون موضوع مهاترة شخصية ، لأنه موضوع يمس الأمة الإسلامية وتاريخها ودورها الإنساني مساً خطيراً . .

. . . كذلك أعدت ربط الموضوع وعرضه ليصلح للقراءة على هيئة كتاب مدعَّم بالوثائق والمصادر متصل الحلقات . . .

❋ ❋ ❋

. . . لقد تناول الكاتب عدة موضوعات تتصل كلها بتاريخ الإسلام السياسي والحضاري ، وكلها موضوعات حيوية وخطيرة تحتاج مناقشتها إلى دراسات واسعة ومفصلة ، لم يتسع لها حيز الجريدة ، مما اضطرني إلى حصر المناقشة في أضيق الحدود ، ورغم ذلك فإني لم أر الانتظار حتى تتهيأ الفرصة لإعادة بسط الموضوع في دراسات مفصلة ، لأن هذا الإنتظار قد يطول ، وقد ينسى الموضوع ويهمل رغم أهميته وحيويته فآثرت أن أنشره كما هو حتى تتاح الفرصة لمن لم يتتبع الموضوع ويلاحقه في الصحيفة اليومية أن يطلع على الموضوع في كتاب إن لم يكن وافياً بتفصيلات الموضوع ، فإنه واف بالخطوط الأساسية التي يدور حولها .

❋ ❋ ❋

. . . لقد فجر كاتب المقال عدة قضايا خطيرة تتعلق - كما سبق القول - بتاريخ الأمة الإسلامية ، ودورها الحضاري ، ولقد كشف أسلوبه في عرض هذه القضايا عن مدى التأثير الخطير الذي مارسه الفكر الغربي على عقول باحثينا وعلمائنا فيما يتعلق بالقضايا الحيوية التي تتصل بتاريخنا ، كما بيّن إلى أي مدى أصبحت وجهة نظر الباحثين الغربيين في تاريخنا أساساً في بناء تصورنا نحن لهذا التاريخ ، وسواء صدر الباحثون الغربيون في وجهة نظرهم هذه عن حقد ورغبة في تحقيق هدف سياسي ، أو صدر عن جهل وقصور في الفهم ، فإن النتيجة واحدة ، وهي أن وجهة نظرهم هذه أياً كانت أصبحت الأساس الذي ينطلق منه بعض الباحثين في النظر إلى تاريخنا والحكم عليه .

وليس المقام هنا مقام اتهام أو تصيد أخطاء ، وإنما هو مقام بيان وتوضيح لأني لا أشك في أن كثيراً من باحثينا قد تبنوا وجهات نظر الغربيين نتيجة انخداع بمنطقهم وحسن عرضهم دون أن تتاح لهم الفرصة لتصحيح وجهات النظر هذه بالرجوع إلى مصادر سليمة .

ولا تكمن الخطورة في كون الباحث العربي المسلم قد تبنى وجهة نظر خاطئة في البحث أو النظر يسهل الرجوع عنها بالتنبيه لما فيها من خطأ ، إنما يكمن الخطأ في الإنجراف في هذا التيار المنحرف والمغرض في مناهج النظر إلى تاريخنا إلى حد الحماس له والدفاع عنه وتبنيه كوجهة نظر لا بديل لها .

لقد أصبح من الضروري الآن مواجهة هذا الانجراف والانحراف بعمل علمي جاد ومنظم يقوم به علماء مسلمون متخصصون ، يستهدف إعادة كتابة تاريخ الإسلام على أساس من الحقائق والأخبار والوقائع الصحيحة التي تزخر بها المراجع والمصادر الإسلامية الصحيحة . كما أصبح من الضروري تبني المنهج الإسلامي الخاص لدراسة هذا التاريخ وتفسيره تفسيراً علمياً صحيحاً ، وذلك عن طريق استخدام منهج مستمد من الكتاب والسنّة لتحليل هذه الأخبار وتفسيرها في إطار واقعها التاريخي ، وعلى أساس من فهم واع عميق لكافة العوامل والسنن الفاعلة في التاريخ الإنساني بوجه عام ، والتاريخ الإسلامي بوجه خاص .

من أجل ذلك حرصت على ألا يقف جهدي عند حد تفنيد ما أثاره الكاتب من شبهات ، أو ما وقع فيه من أخطاء في تصْوير تاريخ الإسلام السياسي والحضاري ، وإنما حرصت في نفس الوقت على عرض منهج المحدثين في دراسة التاريخ والنصوص المتعلقة بالحديث النبوي باعتباره المنهج الأمثل في دراسة التاريخ الإسلامي عموماً ، كما حرصت في نفس الوقت على تقديم منهج لتفسير التاريخ وتحليله استخلصته من الكتاب والسنة ، وفي

تقديري أن هذا المنهج أوفى وأضبط وأسلم من المناهج التي استعملها فلاسفة التاريخ الغربيين في تفسير التاريخ وتحليله ، وحرصاً مني على أن يكون هذا المنهج عملياً فقد قدمت نماذج تتمثل في تطبيق هذا المنهج على بعض الوقائع، لبيان كيفية استعمال هذا المنهج من ناحية ، وللكشف عن أهمية النتائج التي يمكن الحصول عليها نتيجة هذا الاستعمال من ناحية أخرى .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتعرض فيها تاريخ الإسلام السياسي والحضاري للإفساد والتشويه ، فلقد حدث ذلك قديماً على أيدي الحاقدين والموتورين من أعداء الإسلام من الشعوبيين واليهود والنصارى ، وقد انصبّت حملة التشويه والإفساد بكل ثقلها على تاريخ الأمويين والعباسيين بصورة خاصة تحت ستار التشيع لآل البيت ، وفي نفس الوقت انصبت حملة التشكيك والتزييف على نصوص الإسلام على يد الباطنية والمتفلسفة باسم العقل ، وحرية الفكر ، وهي حملات مدروسة تحس وراءها بالعقل المنظم والمدبر . .

وكما ينجرف المخدوعون اليوم تحت نفس الشعارات في تأييد هذا الإفك وهذا التشويه وهذا التزييف ، انجرف قبلهم المخدوعون في الماضي فأعانوا على أنفسهم ودينهم وأمتهم من حيث لا يشعرون .

فبالنسبة للتاريخ السياسي تكاتف السبئيون وغلاة الشيعة على محاولة هدم الإسلام وتفتيت وحدة الأمة الإسلامية عن طريق تزييف الأخبار وترويج الشائعات ، والدس وإشاعة الفتن ضد شهيد الإسلام العظيم عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثالث أصحاب رسول الله ﷺ فضلاً وديناً ثم على معاوية رضي الله عنه ثم على بني أمية من بعده ، بصورة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً ، وقد أعان على نجاح ذلك الكيد حسن ظن المسلمين بأنفسهم ، وعدم أُلفتهم لهذا النوع من الكيد الرخيص باعتبارهم عرباً

يأنفون من أسلوب الكيد والخداع ، ويواجهون أعداءهم في مواضع النزال مواجهة الشرفاء ، وباعتبار أن الإسلام يرتفع بأهله عن هذا النوع من الصغائر . . ولكن الله حمى دينه وحمى أمته فقيض لتاريخ عثمان رضي الله عنه وتاريخ بني أمية من يحقق وقائعه ويصحح أخباره ، ويكشف عن شخصيات الكذابين والوضاعين والدساسين من ملفقي الأخبار ، ويرجع الفضل في ذلك التصحيح إلى أهل السنة والجماعة من أئمة الفقهاء والمحدثين الذين حفلت مصادرهم بالكثير من الأخبار الصحاح التي تنقض كل ما لفقه الملفقون ، وقد بقي لنا في البداية والنهاية لابن كثير ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، ومنهاج السنة لابن تيمية ، وتذكرة الحفاظ وميزان الاعتدال للذهبي ، وخلاصة تذهيب الكمال للصفيّ الخزرجي ولسان الميزان لابن حجر وغيرها من أمهات المراجع ما يمكن من خلاله إعادة كتابة التاريخ السياسي للإسلام وخاصة الفترة التي ذكرناها بصورة تغيّر معالم الصورة البشعة التي رسمها الوضاعون ، وذلك لو خلصت النيات وتضافرت الجهود . .

. . وكما تكاتف السبئيون وغلاة الشيعة على محاولة هدمْ الإسلام من المدخل السياسي ، كذلك تكاتف الباطنية والزنادقة والنصارى على محاولة هدم الإسلام عن طريق الفكر والفلسفة ، لقد حاول هؤلاء إلقاء ظلال الشك على موقف الإسلام من العقل ، ليقولوا إن الإسلام دين يتعارض مع العقل ، وحاولوا التشكيك في قدرات العرب العقلية ليقولوا إن الإسلام دين يناسب حالة العرب العقلية المتردية ، كذلك حاولوا إبراز تعارض بين الإسلام والحرية الإنسانية بمفهومهم الخاص لهذه الحرية ، كذلك حاولوا قلب الإسلام بتأويله تأويلاً مجازياً متعسفاً يستهدف اخضاع الإسلام للمفاهيم الفلسفية الإغريقية الفاسدة التي زعموا أنها تمثل العقل ، والعقل

السليم منها براء .

وكما ينجرف المخدوعون اليوم نحو تصديق هذا النوع من الدعاوى الباطلة ، كذلك انجرف المخدوعون وقتها لتصديق هذه الدعاوى ، وظهرت فتنة المعتزلة ، وخلق القرآن ، ومشكلة الجبر والاختيار ، ومشكلة الذات والصفات . . .

لقد حاول أعداء الإسلام قديماً أن ينزلوا الإسلام على مقتضى أهواء وأوهام الفلاسفة الإغـريق زاعمين أن هذه الأهواء والأوهام تمثل الفكر الصحيح والعلم الصحيح ، وكانت فتنة ضارية شوهت ملامح الدين في أذهان كثير من المخدوعين ، وأستطيع أن أقرر أنه يقف على رأس مجموعة الأسباب الكثيرة التي أدت إلى تدهور أحوال المسلمين ثم خضوعهم في النهاية للاستعمار الغربي هو سيطرة الاتجاه الفلسفي على الاتجاه السلفي أي اتجاه أهل السنة والجماعة . .

وكما تصدى فقهاء المسلمين وعلماء السنة للفتنة السياسية وكشفوا باطلها وعروا الضالعين فيها ، كذلك تصدوا لهذه الفتنة العقلية وكشفوا باطلها ، وقد اشترك في هذا الدفاع المجيد أعلام الإسلام من أمثال الإمام مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل ثم شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية وعشرات غيرهم ، وتمتلىء كتب الفقه وكتب السنّة عموماً بدفاع علمي مجيد عن مختلف هذه القضايا من وجهة نظر إسلامية خالصة ، وكما أن الأمر يحتاج إلى إعادة كتابة تاريخ الإسلام السياسي من مصادره الصحيحة بأقلام إسلامية واعية تتحدث بلغة العصر ، وتهتم بالتنظيم والتنسيق والتبويب ، كذلك يجب إعادة كتابة تاريخ الإسلام الحضاري والفكري . .

إن هذه الكتابة سوف تكشف بما لا يدع أي مجال للشك عن أن أنصار

العقل والحرية الإنسانية بمفهومها الصحيح ، وبالتالي أنصار وأصحاب المنهج العلمي هم المسلمون من أهل السنّة والجماعة ، كما أن هذه الكتابة سوف تكشف عن أن تاريخ الإسلام السياسي ليس فقط في فترة الخلافة الراشدة ، وإنما كذلك في فترة الخلافة الأموية والخلافة العباسية في عصورها الأولى ، هي أنضر فترات التاريخ السياسي الإنساني في التاريخ القديم كله . .

. . .

. . . وإني لأرجو أن أكون قد أسهمت بهذا البحث المتواضع في وضع لبنة في إعادة كتابة تاريخ الإسلام السياسي والحضاري والفكري في الاتجاه الصحيح ، كما أرجو أن يكون هذا البحث مساهمة متواضعة في وضع إشارة على الطريق الصحيح الذي يجب أن يسلكه الباحثون المسلمون من أجل إعادة النظر في تاريخ الإسلام ، ومن أجل إبراز الجهود البناءة التي قام بها المسلمون من أجل بناء مجتمع إنساني أفضل ، يعود بالخير على الإنسانية كلها .

. . . وأخيراً فإني أرجو أن أكون قد أضأت شمعة في هذا الظلام الدامس الذي يكتنف التاريخ الإسلامي ، ويحجب عن الناس الصورة الحقيقية الوضيئة لخير أمة أخرجت للناس . . والله من وراء القصد .

محمّد رشاد خليل

الرياض : ٢٥ من شوال عام ١٤٠١ هـ

القسم الأول

● دفاع عن تاريخ الإسلام السياسي والحضاري

الباب الثالث

[illegible]

[illegible]

● دفاع عن التاريخ السياسي

. . . كتبت هذا البحث رداً على مقال « الوحدة الإسلامية » للدكتور محمد علي مختار والذي نشرته الجزيرة في عددها الصادر بتاريخ ٩ من ربيع الأول عام ١٤٠١ هجرية .

والذي دفعني إلى الرد على هذا المقال هو تهجم كاتبه الغريب على التاريخ الإسلامي جملة ، والذي يزيد من خطورة المقال أن كاتبه يتبنى آراء وأفكار أكثر المستشرقين حقداً على الإسلام وتاريخه ، وهو يتبنى هذه الأفكار والآراء في كل جزئية من جزئيات القضايا التي عرض لها ، حتى لنستطيع أن نقول أن هذه الفكرة وهذا الرأي هو فكرة أو رأي فلان أو علان بعينه من المستشرقين الحاقدين . .

ولا ترجع خطورة هذه الآراء إلى ما لها من قيمة علمية ، ولا لأن الكاتب هو أول من تبنى آراء المستشرقين الحاقدين في فكرنا الحديث وتحمس لها ، ذلك أن هذه الآراء قد سبق إلى طرحها الكثير من الجاهلين بحقيقة الإسلام وتاريخه في فكرنا المعاصر ، وقد تصدى لها الباحثون المسلمون وفندوها وكشفوا عن زيفها، بل وتصدى لها كثير من المستشرقين المنصفين ، حتى حسبنا أن هذه الآراء قد سقطت ، وبان للناس زيفها ، وأصبحت تقرأ كتاريخ ، يكشف عن مدى الحقد الصليبي وتغلغله في عقول المستشرقين الكارهين للإسلام وأهله .

.. إنما ترجع خطورة هذه الآراء إلى توقيت عرضها ومكان هذا العرض .. أما الوقت فهو تداعي المسلمين تحت وطأة الإحساس بالخطر إلى التجمع والتضامن تحت راية الإسلام ، وفي جوار بيته المحرم ، بعد أن تبين للمسلمين زيف الحضارة الغربية ، وزيف المبادىء والأفكار والشعارات التي رفعها المفتونون بالغرب في ساحة العالم الإسلامي .. ففي الوقت الذي استجاب فيه زعماء العالم الإسلامي فيما يشبه الإجماع إلى الدعوة المباركة من جلالة الملك خالد إلى مؤتمر التضامن وعلى الأرض التي حفظها الله من فتنة الفكر الغربي الملحد الحاقد على الإسلام يكون مستغرباً أن يرتفع صوت نشاز غريب مستنكر يشكك المسلمين في قيمة تاريخهم ، وأصالة حضارتهم ، وسلامة نهجهم المستمد من كتاب ربهم في البناء الاجتماعي والحضاري ، موهماً إياهم أن طريق النهضة لا يكون إلا بتبني مناهج الفكر الغربي ، وثقافته العلمية العصرية ومواءمتها مع التراث العربي الإسلامي الصحيح كما يقول ؛ مؤكداً على أن منهج التفكير إنما هو منهج غربي قديم عرض في القرون الأولى على المسلمين فلم يستوعبوه كما يجب ، لذلك لم ينجحوا في بناء حضارة راسخة مستقرة الدعائم ، وأنهم لكي ينجحوا في الحاضر حيث لم يكتب النجاح لعلمائهم في الماضي (وذلك نص عبارته) يجب أن يأخذوا بالمنهج الغربي حتى يتحقق لهم التوازن الذي افتقدوه في الماضي .

.. أما القول بأن على المسلمين أن يستفيدوا من نتائج العلوم ، وثمرات الحضارة الحديثة فيما لا يتعارض مع أصول دينهم ومناهجه فذلك ما لا خلاف عليه ، وأما القول بأن المسلمين لم يتقبّلوا المنهج الإغريقي للتفكير وأنهم فشلوا في بناء حضارتهم لهذا السبب ، والقول بأن عليهم أن يتقبلوا مناهج التفكير العلمي الغربي على علاتها باعتبارها المنهج الصحيح للتفكير فذلك هو الأمر الخطير ، فإذا أضيف إلى ذلك تبني الكاتب لوجهة نظر المستشرقين المتحاملة على تاريخ الإسلام السياسي يصبح الأمر بالغ

الخطورة ، ويتطلب منا أن نواجهه بالتصحيح اللازم ، الذي يرد اعتبار التاريخ الإسلامي السياسي منه والحضاري بصورة تحفظ على المسلمين احترامهم لتاريخهم ولدورهم الحضاري فيه ، وتنبههم ، إلى أصالة دور المسلمين في التاريخ سياسياً وحضارياً ، وإلى أن البناء الصحيح إنما يقوم على استحياء هذا التاريخ والمحافظة على هذه الأصالة ، والتحرر من التبعية الفكرية للغرب والتي هي مفتاح التبعية السياسية . . .

لقد أثار الكاتب قضايا كثيرة وخطيرة يحتاج توضيح وجه الحق فيها إلى كتابات مستفيضة ، ومع ذلك سنبذل قصارى الجهد لتتبع هذه القضايا على وجه الإجمال حتى ننفي عن أذهان الشباب وهم أمل المستقبل ما يمكن أن يكون قد علق بها من آثار تشوش عليها صفاء رؤ يتها لتاريخ أمتنا المجيد .

وأول القضايا الجوهرية التي عالجها الكاتب بروح استشراقية خالصة هي قضية التاريخ الإسلامي في الحقبة الأموية والحقبة العباسية الأولى وهي أروع فترات التاريخ الإسلامي ازدهاراً بعد حقبة القمة الشامخة من تاريخ الإسلام والبشرية كلها وهي حقبة الدعوة والخلافة الراشدة . لقد جرد الكاتب ـ متابعاً الحاقدين فقط من المستشرقين لأن كثيراً منهم قد أنصفوا هذا التاريخ ـ هذه الحقبة من كل قيمة، فلم ير الكاتب في تاريخ الخلافة الأموية سوى النزعة القبلية ، وشعر النقائض بين جرير والفرزدق والأخطل ، وقد أطلق على الخلافة الأموية كلها اسم : الدولة التي تطعم من يؤ يدها وتحرم من يعارضها . . .

ولم ير من تاريخ الدولة العباسية كله غير دور الموالي من الفرس الموتورين ، وغير السباق بين العناصر المختلفة ، وبداية التنافس والطموح الذي ترك خلفه أسس الفكرة الإسلامية ، والذي قادته عناصر تشبعت بأفكار بل غرائز فقدت صفاء الرواد الأوائل وعظمة عقيدتهم السامية . . .

ولم ير في الحضارة الاسلامية جملة إلا أنها : حضارة افتقدت التوازن الصحيح بين العالم الإسلامي ، وطلائع الحضارة الوافدة من خارجه ؛ويأسف الكاتب لأن المسلمين لم يستفيدوا من علوم الإغريق وفلسفاتهم كما يجب ، ولم يستغلوا النشاط الفكري إثر حركة الترجمة استغلالاً سليماً على أساس من العقيدة الإسلامية . . !! ولم يحدث عندهم التفاعل الجيد والتوازن المقبول مع الحضارة الوافدة . . . إلى آخر هذا الهراء الذي امتلأت به أفواه المستشرقين الحاقدين على الإسلام وتاريخه ، وهو الهراء الذي تلقفته عقول فارغة من أجيال مثقفينا الذين ربوا على أيدي هؤلاء المستشرقين . .

ثم عادوا فسمموا بهذا الهراء عقول أجيال بأكملها من شبابنا المسلم في معاهد التعليم الغربي وجامعاته في بلادنا المنكوبة بالغرب وأهله في تاريخها الحاضر . .

والكاتب يعتمد في قراءته للتاريخ الإسلامي على المصادر المشبوهة ، وعلى الأخبار الملفقة التي امتلأت بها كتب الأدب مثل الأغاني وألف ليلة وليلة، والروايات المريضة في كتب الأخبار، وهي المصادر التي اعتمد عليها المستشرقون ، وأدانها سلفنا الصالح من علماء السنة والجماعة ، ولقد قيض الله تعالى لتاريخ المسلمين هؤلاء العلماء المخلصين الذين حفظوا لنا من خلال مدوناتهم في الطبقات والحديث والفقه جانباً هاماً من التاريخ السياسي لا يعرفه كثير من الباحثين المعاصرين الذين لا يعرفون غير كتب الأدب والأخبار . .

حقيقة التاريخ الأموي : -

وتاريخ بني أمية كما يراه الثقات من أهل العلم هو تاريخ تثبيت دولة الإسلام، وذلك على الرغم مما ارتبط بهذا التاريخ من أحداث مؤلمة لها ظروفها ، وملابساتها التاريخية الخاصة التي يجب أن تفهم في ضوئها ، وأبرز

هذه الأحداث مقتل سيد شباب أهل الجنة على يد قائد جيش الأمويين الفاجر ابن زياد أو ابن مرجانة كما يسميه أهل البصرة عليه لعنة الله ، ولم يكن ذلك بأمر من يزيد بن معاوية ولا صادف هوى منه ، فقد روى الطبري وابن الأثير أنه لما جاء رسول الفاسق ابن زياد عليه لعنة الله إلى يزيد يبشره بالخبر « دمعت عينا يزيد ، وقال : قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين . لعن الله ابن سمية ! أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه . فرحم الله الحسين » ؛ وقد أحسن يزيد استقبال بيت الحسين ، فلما رآهم قال : « قبح الله ابن مرجانة ! لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا » .

ولما أدخل النساء دار يزيد« لم تبق من آل معاوية وآل يزيد امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين . فأقاموا عليه المناحة ثلاثاً . وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا دعا علي بن الحسين إليه » . ثم أمر بتوصيل أهل البيت بكل إكرام إلى المدينة ، وظل يكرمهم ويبرهم بعد ذلك،ونحن لا نبرىء يزيد من مسئولية الحادث ، فقد كان عليه أن يحتاط لهذا الأمر حتى لا يحدث ما حدث ، ولكنها مشيئة الله ، وعلى عكس ما يحاول البعض من تصوير العلاقة بين بني هاشم وبني أمية في صورة العداء التاريخي المستحكم تنطق وقائع التاريخ ، ويقول أهل العلم الصحيح ، فلقد كان معاوية رضي الله عنه يتوقع أن يخرج أهل العراق الحسين ، وقد حذر ابنه يزيد من إساءة معاملة الحسين رضي الله عنه إذا حدث ذلك. فقد روي أنه قال له : « وأما الحسين بن علي فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً ، وقرابة من محمد ﷺ ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه . فإني لو أني صاحبه عفوت عنه». ولقد أدرك يزيد مغبة هذا الحادث الشنيع وعاش طوال عمره نادماً ، وكان كلما ذكر الحادث قال آسفاً : « وما كان علي لو احتملت الأذى ، وأنزلته معي في داري وحكمته فيما يريد ، وإن كان علي في ذلك وكف ووهن في سلطاني حفظاً لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه

وقرابته . لعن الله ابن مرجانة ، فإنه أخرجه ، واضطره ، وقد كان سأله أن يخلي سبيله ويرجع فلم يفعل ، أو يضع يده في يدي ، أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عز وجل ، فلم يفعل ، فأبى ذلك ورده عليه وقتله . فبغضني بقتله إلى المسلمين ، وزرع لي في قلوبهم العداوة ، فبغضني البر والفاجر ، بما استعظم الناس من قتلي حسيناً . ما لي ولابن مرجانة ! لعنه الله » . (١) .

إن الذين ينظرون إلى تاريخ بني أمية من خلال موقف أبي سفيان من الاسلام في مكة ، ومن خلال ما دار بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من حروب يبنون على ذلك كما فعل العقاد أوهاماً من صراع تاريخي قبل الإسلام وبعده بين بني هاشم وبني أمية ، وتلك أوهام نبتت في رؤوس أصحابها . ليس لها من التاريخ إلا رواية ملفقة أو أحداثاً عارضة لا تمثل قط صراعاً بين هذين الفرعين الكريمين من بني عبد مناف وهما ذروة الشرف قريش . يقول العالم المحقق الدكتور ضياء الدين الريس في كتابه القيم عبد الملك بن مروان « فعبد مناف هو أبو الهاشميين والأمويين جميعاً . لأن هاشماً هو ابن عبد مناف . وأمية هو ابن عبد شمس بن عبد مناف . فأمية هو ابن أخي هاشم ، وهاشم عمه . فمن ذا يعرف ما بين الفرعين الكبيرين أو البطنين - كما هو التعبير اللغوي الدقيق - من وثيق القربى ، فهما أبناء عمومة . وكانت هذه القربى جامعة بينهما ، ملحوظة ومراعاة في الجاهلية ، فيما عدا أنه كانت توجد أحياناً منافسة بينهما . فالذي كان حاصلاً بينهما هو منافسة في سبيل الشرف ، كما توجد عادة بين فروع أسرة كبيرة ، لم تبلغ مبلغ العداء ولم تصل الى الحرب .

وقد كتب كثيراً عن الخصومة بين البطنين وبولغ فيها ، حتى صور ما

---

(١) الكامل لابن الأثير مجلد ٥ ص ٨٧ وانظر تفصيل هذه المسألة في كتاب عبد الملك بن مروان لضياء الدين الريس ص ١٠٢/١٠٨ .

بينهما بحالة عداء مستحكم ، مقرون بعواطف الحقد والبغض والمرارة . وليس هذا صحيحاً ، ولا يتفق مع واقع التاريخ ، وإنما هو قراءة للتاريخ الماضي في ضوء الأحداث التالية ، وهو ما يسمى بعكس الترتيب الزمني ، وهو من الأخطاء المعروفة في تصوير التاريخ . ويدل على خطأ هذه الصورة أن حرب بن أمية كان صديقاً لعبد المطلب بن هاشم ! كان ملازماً له في مجلسه وكان نديمه ، حتى حدثت بينهما جفوة صغيرة بسبب طارىء خارجي ، كتلك التي تحدث عادة بين الأصدقاء والأقارب . أما الصداقة بين أبي سفيان بن حرب والعباس بن عبد المطلب فمشهورة . استمرت في الجاهلية والإسلام . وكان العباس هو الواسطة في إنقاذ حياة أبي سفيان وإقناعه بالإسلام ، كما يثبت ذلك القصة التي ذكرها « ابن هشام » في سيرته يصف فيها كيف أسلم أبو سفيان »(١) .

وأقول إن مما يؤكد بطلان هذه الصورة أن عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو واحد من عمد بني أمية وأشرافها كان من أوائل الناس إيماناً وتصديقاً برسول الله ﷺ ، ومن أول الذين واسوا النبي وأصحابه بأنفسهم وأموالهم ، وهو ثالث ثلاثة أحبهم رسول الله ﷺ ورضي عنهم حتى مات ، وقد زوجه اثنتين من بناته ﷺ لذلك سمي بذي النورين .

بل ومما يؤكد بطلان هذه الصورة أن أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها كانت من أسبق الناس إلى الإسلام وتحملت في سبيله الأذى وهاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة فلما توفى عنها زوجها تزوجها رسول الله ﷺ وأصبحت بذلك واحدة من أمهات المؤمنين ، وعلى هذا الأساس سمي معاوية رضي الله عنه بخال المؤمنين . بل ومما يؤكد بطلان هذه الصورة أن عم رسول الله ﷺ والذي سمي بأبي لهب في كتاب الله كان أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ ، ومات على الكفر بينما أسلم أبو سفيان

---

(١) عبد الملك بن مروان ص ٥٧ .

وحسن إسلامه ومات على الإسلام : « وكذلك الحكم،وصار معاوية رضي الله عنه صحابياً ، ونشأ مروان تابعياً ، وكان مولد عبد الملك ونشأته كلها إسلامية ، وجاهدوا في الإسلام في ميادين الحرب أو السياسة أو العلم أو العبادة . . وحققوا لهم مجداً في الإسلام ، فانتقلوا من شرف الجاهلية إلى شرف الإسلام » . وروى المحدثون عن معاوية رضي الله عنه الحديث ، وحفظ عبد الملك عن عثمان . وسمع من أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله . وكان عابداً ناسكاً قبل الخلافة . وقال الذهبي : سمع عبد الملك من عثمان وأبي هريرة وأبي سعيد وأم سلمة وابن عمر ومعاوية .

وروى عن عبد الملك عروة ، ورجاء بن حيوة ، والزهري ، ويونس ابن ميسرة ، واسماعيل بن عبيد الله ، وطائفة .

وقال نافع : لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أنسك ، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان . وقال مالك : سمعت يحيى بن سعيد يقول : ممن صلى في المسجد ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه . كانوا إذا صلى الإمام الظهر قاموا فصلوا إلى العصر .

وقال أبو الزناد : كان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب ، وعروة ابن الزبير ، وقبيصة بن ذؤيب ، وعبد الملك بن مروان . والحديث طويل(١) .« وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين . وعدالتهم معروفة » . . (٢) .

«ولما انتهت الدولة إلى بني أمية بذلوا كل الجهد لإعلاء شأنها

---

(١) عبد الملك بن مروان ص ٨٥ / ٨٦
(٢) نفس المصدر ص ٧٢

والدفاع عن الإسلام وأهله ، وسهروا على حفظ وحدة الأمة ـ التي هي الأساس لبقائها وتقدمها ـ وكان هذا أمرا شاقاً عسيراً لا يقدر عليه إلا نوابغ الساسة ، والأقوياء من القادة ، فأظهروا كفاية في ذلك ، ونجحوا في الجملة ـ إذا استثنينا العدد القليل منهم ـ وواصل خلفاء بني أمية الفتوحات كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين ، ورفعوا أعلام الإسلام في كل الجهات ، حتى كادوا أن يستولوا على القسطنطينية ، وبدأت في عهدهم النهضة العلمية والأدبية التي ازدهرت وآتت ثمارها في العصر العباسي بعدهم ، ووضعوا القواعد لنظام الدولة وتركوها لمن بعدهم .. هذا هو تاريخ بني أمية الحقيقي وهذا هو موقفهم من الإسلام ، فهم جزء لا يتجزأ من تاريخه الزاهر المضيء ، وهم على الجملة مفخرة للإسلام ، لولا أخطاء وسيئات نعرفها لهم . ولكن المعصوم من عصم الله » ..[1] .

ويقول ابن خلدون في شأنهم « .. وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم، فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه مع أن ظنهم كان به صالحاً . ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره فلم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما يدعى عليه من الفسق حاشا الله لمعاوية من ذلك ، وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه ، وإن كانوا ملوكاً ، لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي ، إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة التي هي أهم لديهم من كل مقصد ، يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء ، وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك ،وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين ، وعدالتهم معروفة ، ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك ،وكانوا

---

(١) نفس المصدر ص ٩٦ .

من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع إلى طريقة الخلفاء والصحابة جهده ولم يهمل ، ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها ، واعتماد الحق في مذاهبها . . »[1] .

هذا العرض الموجز لبعض جوانب تاريخ بني أمية يكشف لنا عن المصادر المشبوهة التي صدر عنها الكاتب في حكمه المتجني على بني أمية . .

حقيقة التاريخ العباسي :-

أما عن بني العباس فيقول الكاتب : « ثم يطيح العباسيون بعد أن سحبوا البساط من تحت أقدام الأمويين بمساعدة الموالي الفرس الموتورين فيظهر العنصر الفارسي في المسرح . وهذه طلقة بداية السباق بين العناصر المختلفة وبداية التنافس والطموح الذي ترك خلفه أسس الفكرة الإسلامية ، وقادته عناصر تشبعت بأفكار بل غرائز فقدت صفاء الرواد الأوائل وعظمة عقيدتهم السامية . واكتمل العقد بعد إدخال الخليفة المعتصم بالله الترك في الجيش . . الخ » . . أهكذا يقرأ التاريخ ، وبمثل هذا القدر من البساطة تصْدر الأحكام . . ؟! . .

فلنسمع أولاً رأي أهل السنة كما يلخصه ابن خلدون في هذه الحقبة التي أشار إليها الكاتب يقول : كانوا (أي العباسيين في طورهم الأول) من العدالة بمكان ، وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا . . »[2] ، في هذه الفترة العظيمة من تاريخ الإسلام بدأ الفكر الإسلامي يؤتي أشهى ثماره في مختلف مجالات العلم والمعرفه ، وفيها كما يقول الكاتب نفسه ظهر كبار الفقهاء من أمثال مالك بن أنس وأبي حنيفة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٧ .

والشافعي وأحمد بن حنبل ومئات غيرهم ، وفي هذه الفترة ظهر نوابغ العلماء في شتى المجالات ، وبدأ يظهر نبوغ العلماء المسلمين في مجال العلوم التجريبية التي يعد المسلمون كما سنذكر في حديثنا عن الحضارة الإسلامية هم روادها الحقيقيون ، وهم واضعوا أسسها ومناهجها . على أساس من مناهج الإسلام وعلمائه في البحث والنظر ، يقول جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب « دور الخلافة في بغداد بآسية ودورها في قرطبة بإسبانية أنضر أدوار الحكم العربي ، ولما استقلت تانك الدولتان بسرعة ، وفصلت بينهما مساوف عظيمة ، وكان لهما أصل واحد ودين واحد ولغة واحدة ، تقدمتا تقدماً متوازياً عدة قرون ، وكانت المدينتان الكبيرتان ، بغداد وقرطبة ، وهما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للإسلام ، من مراكز الحضارة التي أضاءت العالم بنورها الوهاج أيام كانت أوربة غارقة في دياجير الهمجية . . ثم يقول « بلغت بغداد ذُرْوة الرخاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرشيد الشهير (٧٨٦ م - ٨٠٩ م) وابنه المأمون . . (ولاحظ هنا أن لوبون مثله كمثل غيره من المستشرقين يعطي هذا الكتاب اللقيط الذي زيفه الحقد المجوسي على الإسلام وأهله أهمية كبيرة) ، ثم نكمل كلام لوبون ، يقول « وذاع صيت الرشيد ، وطبق الآفاق ، فأرسلت بلاد التتر والهند والصين رسلاً إلى بلاطه وأرسل عاهل الغرب الحقيقي وصاحب الحول والشوكة الإمبراطور شارلمان ، الذي كان يملك ما بين المحيط الأطلنطي ونهر الألب ، وهو الذي لم يملك غير أناس من الهمج ، وفداً ليبلغ الرشيد تحياته . . » ثم يقول . . « وكانت مالية الدولة دقيقة الضبط . . ولم تكن الشرطة في عهد الخلفاء أقل انتظاماً من البريد والمالية ، وكانت للتجار نقابة مسئولة لرقابة أمور البيع والشراء ومنع الغش والتدليس » .

وكان انتظام مالية الخلفاء سبباً في القيام بأعمال عظيمة تعود على

الناس بالخير ، كتعبيد الطرق ، وإنشاء الفنادق والمساجد والمشافي والمدارس في جميع نواحي الدولة، ولا سيما بغداد والبصرة والموصل ، الخ .

واتسع نطاق الزراعة والصناعة ، .. ووسعت دائرة التعليم العام . . . وبلغ علم الفلك درجة رفيعة من التقدم ، وانتهى إلى نتائج لم ينته إليها الأوربيون إلا في الحاضر . . .

وأقدم العرب على تلك المباحث التي لم يكن لهم عهد بها ، بشوق ونشاط ، وأكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان ، وكانت لهم اكتشافات مهمة في أكثر العلوم . . . إلى آخر هذا الحديث الطويل عن دور العباسيين ومكانهم[1] ؛ وهكذا يقرأ التاريخ ، وهي قراءة على ما بها من شوائب تدل على الجهد والتحري ولو مع سوء الفهم أحياناً . . لا نقول إن بني العباس أصابوا ولم يخطئوا ، ولكنا نقول إن ذلك يجب أن يقاس في إطار ظروفه التاريخية ، وأن يتحرى فيه وجه الحق ، ولا يؤخذ تاريخ بني العباس من كتاب حاقد موتور كأبي الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني كما فعل أحمد أمين في ضحى الإسلام ولا من ألف ليلة وليلة ، وعيب كبير أن نتسرع في تشويه أنضر فترات تاريخنا دون تحر . . . إن هذا التاريخ لو كان لكتاب الغرب نظير يماثله أو يقاربه لملأوا الدنيا طنيناً وجعجعة ، وهم يفخرون من التاريخ بما هو دون ذلك بكثير ، ويتعالون علينا بتاريخ وثنيتهم وإلحادهم وبطشهم ، فما بالنا نتبعهم بلا علم ولا وعي ، وهم يطمسون معالم تاريخنا ويشوهون ويدنسون أعز ما فيه . . . ؟!

الفرس والترك ودور العرب في إقامة الدولة الإنسانية :-

بقيت مسألة خطيرة عرض لها الكاتب وتجد لها هوى في نفوس العرقيين العرب المحدثين الذين يجهلون حقيقة تاريخهم وهي مسألة الفرس

---

(١) حضارة العرب ص ١٧١ / ١٧٣ .

والترك ، إن الحديث عن هاتين الأمتين العظيمتين ، وعن دورهما العظيم في تاريخ الاسلام بمثل هذه الروح التي تحدث بها الكاتب يدل على عدم إدراك للانقلاب الهائل الذي أحدثه الإسلام في تاريخ البشر ، بل وللدور العظيم الذي قام به العرب المسلمون في ذلك التاريخ . .

لقد كان العرب المسلمون رواداً بكل معنى الكلمة في قضية التمييز العنصري التي عانت البشرية وما تزال تعاني منها الويلات . .

إن عظمة العرب الحقيقية لا تتمثل في أنهم أقاموا بالإسلام دولة عربية عظيمة ، وإنما تتمثل في أنهم أقاموا بالإسلام دولة إنسانية عظيمة ، لقد فهم العرب الأهداف الحقيقية للإسلام ؛ فهموا أن الإسلام يهدف إلى تحطيم الحواجز التي تزرع العداوة بين البشر ، وفهموا أن الإسلام يهدف إلى إقامة دولة إنسانية أساسها النسب الواحد إلى آدم أبو البشر جميعاً ، ولحمتها الإيمان بالأخوة في الله الواحد ، ولو لم يكن للعرب من إسهام في التاريخ إلا أنهم أقاموا عملياً دولة إنسانية تجتمع تحت رايتها جميع الأجناس لكفاهم ذلك في التاريخ فخراً . .

وفي الوقت الذي يتداعى المسلمون جميعاً إلى وحدة جامعة تحت راية الإسلام ، يجب أن يكون أهم ما نعمله في هذه الفترة هو أن نبرز ذلك الدور التاريخي العظيم الذي حقق فيه العرب مع إخوة لهم من فرس وترك وهنود وغيرهم هذه الدولة الإسلامية الإنسانية العالمية على أرض الواقع ، وهذا الذي يعيبه الكاتب على العباسيين هو بعينه ما يجب أن يكون واحدا من مآثرهم الباقية في التاريخ . .

فما هو العيب في أن يكون للفرس الذين أسلموا وحسن إسلامهم ، وتعربوا بالإسلام وباللسان العربي دور في الدولة المسلمة التي تقوم على أخوة الإيمان بالله لا على نعرة الجنس ، وما هو العيب في أن يكون لإخوتهم من الترك مثل ذلك الحق . .

أما أن يكون في الفرس شعوبيون يكرهون العرب والإسلام ويكيدون لهما ، أما أن يكون في الترك مثل ذلك ، فلا يجوز أن يصرفنا ذلك لحظة عن الدور العظيم الذي قام به الفرس والترك الذين حسن إسلامهم في سبيل خدمة الإسلام والأمة الإسلامية .

ولئن كان في الفرس أو الترك من تصرفوا بمقتضى العصبية العنصرية الجاهلية . فلقد كان في العرب من فعل ذلكم ، وليس بمثل هؤلاء الشعوبيين يقاس تاريخ الإسـلام .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيم (اقتضاء الصراط المستقيم) بعد أن يبين أن الفضل في الإسلام ليس لمجرد النسب وإنما هو للعمل ، وان العبرة بالأسماء التي حمدها الله وذمها ، كالمؤمنين والكافرين ، والبر والفاجر ، والعالم والجاهل ،وبعد أن يوردالأحاديث التي ورد فيها الثناء على الفرس : « ومصداق ذلك : ما وجد من التابعين ومن بعدهم من أبناء فارس الأحرار والموالي ، مثل : الحسن ، وابن سيرين ، عكرمة مولى ابن عباس ، وغيرهم إلى من وجد بعد ذلك فيهم من المبرزين في الإيمان والدين والعلم ، حتى صار هؤلاء المبرزون في ذلك أفضل من أكثر العرب .

وكذلك في سائر أصناف العجم : من الحبشة والروم والترك . وغيرهم : سابقون في الإيمان والدين لا يحصون كثرة ، على ما هو معروف عند العلماء . إذ الفضل الحقيقي : هو اتباع ما بعث الله به محمداً من الإيمان والعلم ، باطناً وظاهرا . فكل من كان فيه أمكن : كان أفضل . إنما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب والسنة . مثل : الإسلام والإيمان ، والبر والتقوى ، والعلم والعمل الصالح ، والإحسان ، ونحو ذلك . لا بمجرد كون الإنسان عربياً أو عجميا ، أو أسود أو أبيض، ولا بكونه قروياً أو بدويا »[1] .

(١) اقتضاء الصراط ص ١٤٥ .

هكذا كان يقرأ سلفنا الصالح تاريخ الإسلام ، وبهذا المقياس وحده كانوا يقيسون الناس ، وأي قراءة لتاريخ الإسلام على غير هذا الوجه إنما هي تشويه وإفساد ، بل إهانة للإسلام ، وجناية عليه ، وإهانة لسلف هذه الأمة واستخفاف بهم ، وفيهم خير القرون بشهادة رسول الله ﷺ لهم في قوله « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ، ويدخل في خير القرون هذه من الفرس ، كما يدخل فيها من العرب من حسن إسلامهم ، وأخلصوا دينهم لله ، ولا أقول ذلك من عندي ، وإنما ذلك ثابت بنص الكتاب ، وصريح حديث رسول الله ﷺ ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية « ثم قد جاء الكتاب والسنة بمدح بعض الأعاجم قال تعالى (٦٢ : ٢ ،٣)﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾ . وقد فسر رسول الله ﷺ قوله تعالى﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ في الحديث الذي ورد في الصحيحين عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال « كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ . فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ قال قائل من هم ، يا رسول الله ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا ، وفينا سلمان الفارسي . فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال : لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء » . وقد روى ابن تيمية آثارا أخرى نكتفي منها بهذا(١) .

على أن هناك مسألة هامة جداً تغيب عن أذهان الكثيرين اليوم بعد أن تحرك فيهم عرق العصبية ، وهذه المسألة هي : من هم العرب بعد الإسلام ؛ لقد أورد ابن تيمية بحثا قيما حول هذه المسألة في كتابة الذي اشرنا إليه . ختمه بقوله « وما ذكرنا من حكم اللسان العربي وأخلاق العرب

(١) نفس المصدر ص ١٤٤ / ١٤٥

يثبت لمن كان كذلك ، وإن كان أصله فارسيا . وينتفي عمن لم يكن كذلك ، وإن كان أصله هاشميا . والمقصود هنا : أن ما ذكرته من النهي عن التشبه بالأعاجم إنما العبرة فيه : بما كان عليه صدر الإسلام من السابقين الأولين. فكل ما كان إلى هداهم أقرب فهو المفضل ، وكل ما خالف ذلك فهو المخالف . سواء كان المخالف ذلك اليوم عربي النسب ، أو عربي اللسان . وهكذا جاء عن السلف . فروى الحافظ أبو ظاهر السلفي من فضل العرب بإسناده عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال « من ولد في الإسلام فهو عربي »[1] .

وقبل أن أختم هذا الحديث لا أحب أن يفهم من كلامي أني أريد أن أبرىء الفرس أو الترك أو غيرهم من كل خطأ فذلك ما لا يمكن أن يقول به من له أدنى دراسة بالتاريخ ، وإنما الذي أريد قوله هو أن الفرس أصابوا وأخطأوا وأن الترك أصابوا وأخطأوا ، كما أن العرب كذلك أصابوا وأخطأوا والجميع في النهاية بشر يخطئون ويصيبون ، والمعصوم من عصم الله ، والمهم ألا نعمم في الحكم ، وأن نبني أحكامنا على أساس من الحق الذي جاء به الإسلام لا على أساس الأهواء التي تجر اليها العصبيات . .

. . وقبل أن أنتقل إلى القضية الخطيرة الأخرى وهي قضية الحضارة أحب أن أشير إلى خطأ في القياس يقع في كثير من الناس ، ألا وهو قياس عمل الأجيال اللاحقة على جيل النبوة والكتاب ثم مطالبتهم بمثل عمل الرسول ﷺ وأصحابه . . وهيهات أن يدرك أحد مثل ذلك . إنما ذلك جيل ضربه الله مثلا للناس ليقاربوه ، ويتأسوا به ، ويجهدوا ليكونوا على أثره ، فإذا أدركوا ما هو قريب من ذلك فذلك فضل الله ، وإن سقطوا دون ذلك ، فإن رحمة الله قريب ، وحسب الناس أن يحاولوا ما استطاعوا ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها . . .

(١) اقتضاء الصراط ص ١٦٦ وما بعدها .

● دفاع عن التاريخ الحضاري

.. عرضت آنفا للشكوك التي آثارها الدكتور محمد علي مختار في مقاله عن الوحدة الإسلامية حول الأطوار السياسية للتاريخ الإسلامي في القرون الأولى ، .. وأعرض الآن لما أثاره من شكوك حول الأطوار الحضارية .

أهل السنة والجماعة :

وأنبه أولا إلى أن رأي أهل السنة والجماعة قديما وحديثا يناقض ما ذهب إليه الكاتب في كل جزئية أثارها في هذا الموضوع ، واصطلاح أهل السنة والجماعة نفسه له في تاريخنا الإسلامي مدلول مناقض أيضا لمدلول هذا الاصطلاح عن المستشرقين الذين ردد الكاتب آراءهم ؛ فأهل السنة والجماعة في اصطلاح علماء المسلمين هم جماعة الأمة التي ثبتت عبر القرون على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه دون ابتداع بتغيير أو تحريف ، وهم الذين تصدوا عبر القرون لمواجهة كل ما حاوله أعداء الاسلام من تحريف وتشويه وتغيير لما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ، وأهل السنة والجماعة هم الذين استنبطوا من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ المنهج العلمي الصحيح الذي توزن به الأفكار والآراء والعلوم والأعمال؛ ذلك أن الأنبياء لم يبعثوا فقط بالدعوة إلى توحيد الله وعبادته بالعمل الصالح ، وإنما بعثوا أيضا بالميزان ، قال تعالى : ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ..﴾[1]

(١) سورة الشورى : ١٧ .

والميزان هنا ليس ميزان البقال وبائع الحلوى ، وإنما هو منهج الحق الذي يفصل في الآراء والأفكار والأعمال ، ويميز حقها من باطلها ، قال تعالى : ﴿ واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم . . ﴾[1] فسمي كل رأي أو فكر لا يستقيم مع الحق هوى، والهوى هو الباطل الذي لا أصل له من علم صحيح .

فأهل السنة والجماعة هم أهل هذا الميزان الذي ورثوه من الأنبياء ، ولم يصدر أهل السنة في ردهم لأي فكر أو معتقد عن محض الهوى أو الجهل ، وإنما درسوا وقاسوا وحكموا بميزان علمي دقيق في كل ما عرض لهم من المعتقدات والفلسفات والمذاهب ، فكانوا بذلك رواد التفكير العلمي بحق ،وعلى أيديهم تمت أكبر عملية تصحيح وتحقيق لكل الفكر الإنساني في أكبر ثورة علمية عرفها التاريخ .

الدور الحضاري للمسلمين :

في ضوء هذا التصحيح الضروري نعرض لما أثاره الكاتب من شبهات حول الدور الحضاري للمسلمين ، يقول الكاتب « مصير الأطوار الحضارية لم يكن أفضل من مصير الأطوار السياسية . لم يحدث توازن صحيح بين العالم الإسلامي وطلائع الحضارة الوافدة من خارجه ولو تم ذلك لكانت بداية الحضارة الحديثة قد تمت في هذا العالم لا في أوربا . . » ، وتلك واحدة من أكبر المغالطات التي أشاعها المستشرقون الحاقدون على الإسلام ، حتى استقرت كحقيقة يقينية في عقول تلاميذهم من مؤرخينا ومفكرينا المعاصرين ،يبنون عليها حكمهم على تاريخنا الإسلامي ، وهذه المغالطة تقوم على أساس القول بأن بُناة الحضارة هم الإغريق ، وأن دور المسلمين فيها لم يكن أكثر من دور الناقل الذي لم يحسن الإستفادة مما ينقله ، ولم تؤت

---

(١) سورة الشورى : ١٥

هذه الحضارة أكلها الا حين نقلها الأوربيون عن المسلمين وبنوا عليها الحضارة الغربية الحديثة : أو كما يقول الدكتور علي سامي النشار في مقدمة كتابه مناهج البحث عن مفكري الإسلام « حاولت أوربا ـ أو العالم الغربي ـ خلال علمائها ومفكريها أن تفرض علينا « ثقافة » أوربا و « حضارتها » مدعية أن أسلافنا من قبل فعلوا هذا ، حين أخذوا بفلسفة اليونان وحضارة اليونان ، وقالوا إن الحضارة الإسلامية لم تكن سوى صورة مشوهة لحضارة اليونان أو لم تكن غير جسر عبرت عليه هذه الحضارة إلى أوربا . كانت حضارة الإسلام إذن وفكر الإسلام إذن ـ في رأي هؤلاء ـ ذيلا لحضارة اليونان ، وترديدا لها . وقد تابع أوربا في العقود الأربعة الأولى من هذا القرن ـ هذا الجيل المأفون ، ممن دعوا بالمجددين وقادة الفكر ورجال الرأي »[1] ولعله من المستحسن أن نترك لبعض من الباحثين الغربيين المنصفين أمر تفنيد هذه الفرية ، خاصة وأن بعض الناس لا يثق إلا بما يقوله علماء الغرب !! ، يقول جوستاف لوبون « لم يظهر في أوربة قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب ، وعلى كتب العرب وحدها عول روجر بيكن وليونارد البيزي وأرنود الفيلنوفي وريمون لول وسان توما والبرت الكبير العاشر القشتالي . . . »[2] وتقول المحققة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها « شمس الله تسطع على الغرب ، والمترجم إلى العربية تحت عنوان « شمس العرب تسطع على الغرب » :

« إن الحضارة العربية المبتكرة لم تأخذ عن الحضارة الإغريقية أو الحضارة الهندية إلا بقدر ما أخذ طاليس أو فيثاغوروس من الحضارتين البابلية والمصرية . لقد طور العرب ، بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ، ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق وشكلوه تشكيلا جديدا . فالعرب في

---

(١) ص ١١ .

(٢) حضارة العرب ص ٥٦٨

الواقع هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي الحق القائم على التجربة .

لقد سرت بين العلماء الإغريق الذين لم يكونوا جميعا بالإغريقيين بل كان أغلبهم من أصل شرقي سرت بينهم رغبة في البحث الحق وملاحظة الجزئيات . ولكنهم تقيدوا دائما بسيطرة الآراء النظرية . ولم يبدأ البحث العلمي الحق القائم على الملاحظة والتجربة إلا عند العرب . فعندهم فقط بدأ البحث الدائب الذي يمكن الإعتماد عليه، بتدرج من الجزئيات إلى الكليات ، وأصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين . وبرزت الحقائق العلمية كثمرة للمجهودات المضنية في القياس والملاحظة بصبر لا يعرف الملل . وبالتجارب العلمية الدقيقة التي لا تحصى ، اختبر العرب النظريات والقواعد والآراء العلمية مرارا وتكرارا ؛ فأثبتوا صحة الصحيح منها ، وعدلوا الخطأ في بعضها . ووضعوا بديلا للخاطىء منها متمتعين في ذلك بحرية كاملة في الفكر والبحث ، وكان شعارهم في أبحاثهم - الشك هو أول شروط المعرفة - تلك الكلمات التي عرفها الغرب بعدهم بثمانية قرون طوال . وعلى هذا الأساس العلمي سار العرب في العلوم الطبيعية شوطا كبيرا ، أثر فيما بعد بطريق غير مباشر [١] على مفكري الغرب وعلمائه أمثال روجر باكون(Roger Bacon)وماجنوس (Magnus) وفيتليو (Vitelio) وليوناردو دافنشي (Leonardo davinci) وجاليليو .

إن العرب لم ينقذوا الحضارة الاغريقية من الزوال ونظموها ورتبوها

---

(١) الحقيقة أنه أثر بطريق مباشر ، فهؤلاء الذين ذكرتهم الكاتبة قد تتلمذوا تلمذة كاملة على العلوم العربية الاسلامية ، وعنها مباشرة أخذوا مناهج البحث والكثير من نتائجه العلمية ، إلا أنهم لم يكونوا أمناء ، أو على الأقل لم تكن لديهم الجرأة - في عصر محاكم التفتيش الصليبية التي أقيمت خاصة للقضاء على كل ما هو عربي واسلامي - ليعلنوا أنهم تتلمذوا على يد العرب وأنهم أخذوا هذه العلوم عنهم . والكاتبة نفسها تقرر بعد سطر واحد أنهم هؤلاء قد سرقوا علوم العرب ونسبوها إلى أنفسهم ، وذلك ما سيقرره بريفولت على نحو ما سنرى .

وأهدوها إلى الغرب فحسب ، إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع. وبالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم التي سرق أغلبها ونسب إلى الآخرين (تأمل هذه العبارة !!) قدم العرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم »[1] .

« ويقرر الأستاذبريفولت(Briffault)في كتابه تكوين الإنسانية (Making of Humanity) « أن روجربيكون درس العلم العربي دراسة عميقة ، وأنه لا ينسب له ولا لسميه الآخر أي فضل في اكتشاف المنهج التجريبي في أوربا ، ولم يكن روجر بيكون في الحقيقة إلا واحدا من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوربة المسيحية ، ولم يكف بيكون عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة الحقة لمعاصريه . ثم يذكر بعد ذلك أن مناقشات عدة تقوم حول واضعي المنهج التجريبي ، وأن هذه المناقشات تعود في آخر الأمر إلى تصوير فاسد محرف لمصادر الحضارة الأوربية . أما مصدر الحضارة الأوربية الحق فهو منهج العرب التجريبي ، وقد [انتشر منهج العرب التجريبي في عصر بيكون وتعلمه الناس في أوربا ، يحدوهم إلى هذا رغبة ملحة] ، ثم يذكر أنه ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربي لم يكن للثقافة الإسلامية تأثير أساسي عليها ، ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية في العالم الأوربي هو تأثيرها في « العلم الطبيعي والروح العلمي»: [وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث والمصدران الساميان لازدهاره] ويقرر في حسم وإصرار : أن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدموه لنا من اكتشافهم لنظريات مبتكرة غير ساكنة . إن العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا . . إنه يدين لها بوجوده ، وقد كان العالم ـ كما رأينا ـ عالم ما قبل

(١) هونكه . شمس العرب ص ٤٠٠ / ٤٠٢

العلم . إن عالم النجوم ورياضيات اليونان كانت عناصر أجنبية لم تجد لها مكانا ملائما في الثقافة اليونانية . قد أبدع اليونـان المذاهب وعممـوا الأحكام . ولكن طرق البحث وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها ، ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصّلة العميقة ، والبحث التجريبي كانت كلها غريبة عن المزاج اليوناني . . . إن ما ندعوه بالعلم ظهر في أوربا كنتيجة لروح جديد في البحث ولطرق جديدة في الاستقصاء . . طريق التجربة والملاحظة والقياس ، ولتطور الرياضيات في صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوربي .

المسلمون إذن هم مصدر هذه الحضارة الأوربية القائمة على المنهج التجريبي . وإننا لنعلم أن فرنسيس بيكون قام بعد ذلك بشرح هذا المنهج ، ثم بحث فيه جون ستيوارت مل محتذيا حذو العرب ، آخـذا بكل ما توصلوا إليه مرددا عباراتهم وأمثلتهم . وقد خطا المنهج التجريبي بعد بيكون ومل خطوات مختلفة ومتعددة في عهدنا الحاضر ، واتخذ صورا أخرى على أيدي الأوربيين . ولكن المسلمين هم أول من تنبه في تاريخ رواد الفكر الانساني - إلى جوهره واتخذوه أساسا لحضارتهم . . وبهذا كانوا أساتذة الحضارة الأوربية الحديثة الأولين» [1] .

كيفية التعامل مع المصطلحات الحديثة : -

وقبل أن نختم حديثنا عن قضية الحضارة الإسلامية أحب أن أنبه إلى منزلق خطير يتردى فيه الباحثون المعاصرون في تاريخنا الإسلامي ، وهذا المنزلق يتمثل في عدم وعيهم بأن المصطلحات الحديثة التي ينظر من خلالها إلى التاريخ وتقوم من خلالها جهود الأمم إنما هي مصطلحات غربية مشحونة بمدلولات غربية تنبثق من الرؤ ية الخاصة للفكر الغربي ، وقد نبهت

(١) د. النشار . مناهج البحث ص ٢٧٦ / ٢٧٨ .

إلى هذه المسألة في بحث عن الاشتقاق في اللغة العربية نشرته مجلة الدارة في عددها الرابع من السنة الخامسة وجاء فيه « أما بالنسبة لمفاهيم البدائية والحضارة والتقدم والتخلف ، والرقي والتأخر فإن علينا أن نعرف أن هذه المصطلحات ليست تنزيلا من حكيم حميد يتحتم علينا التسليم به وإنما هي مصطلحات ورثناها من الفلسفة الإغريقية قديما ومن الفكر الغربي حديثا ، وتحديد هذه المصطلحات يقوم على تصورات تنبثق من واقع المجتمعات الغربية وظروفها ، ولم يأت تحديد هذه المصطلحات نتيجة استقراء حقيقي لأنماط الحياة الإنسانية ونشاطها ، ولم يأت من دراية بحركة التاريخ الإنساني في ظروفه المختلفة ، كما أنها لم تأت من قواعد عامة مطردة تصلح للتطبيق في كل الظروف ومع كل الشعوب . ويكفي دلالة على فساد الاصطلاح وخصوصيته أن يكون الفيلسوف الذي عرفه تاريخ الغرب في هذا الاصطلاح أرقى عقلا من النبي الذي عرفه تاريخنا . . !! ، وهذا مرفوض دينا وعقلا . اما مصطلح التقدم والتخلف الحضاري فيكاد يرتبط في الاصطلاح الحديث ـ رغم المحاولات الجارية لتوسعته ـ بالتقدم المادي . . ومن الغباء أن ننساق وراء تضليل هذا المصطلح فنحاول أن ندافع عن تاريخنا بأنه عرف التقدم المادي ، فذلك الدفاع وإن كان يمثل حقيقة تاريخية إلا أنه يؤدي إلى نتائج شديدة الخطورة لأنه يقدم الإبداع المادي على الرقي الأخلاقي الذي يمثل الأساس في تقدمنا الحضاري ، والذي يعطينا على الغرب المادي ميزة لا تعادلها ميزة أخرى ، إن من شأن الانسياق وراء هذا المفهوم ونحن ننبه هنا إلى أنا لا ننكر قيمة الرقي المادي في إطار أخلاقي معين ، ولا نقلل من قيمته يجرنا دون وعي إلى احتقار الجانب الأكثر قيمة في تاريخنا ، إننا إذا طبقنا هذا الاصطلاح بمفهومه المادي على تاريخنا فسوف نسلك رسول الله ﷺ وهو خير الخلق ، ونسلك أصحابه وهم خير جيل من البشر في عداد المتخلفين حضاريا وذلك لأنهم عاشوا حياة مادية بسيطة خالية من التكلف والتعقيد في

المأكل والمشرب والملبس والمسكن وطرائق الحياة المختلفة ، مع أننا إنطلاقا من مفهومنا الخاص للحضارة نتخذ من هذا المظهر دليلا على سمو الرسول ﷺ وأصحابه ، وعلى نبلهم وعظيم خلقهم. إننا بهذا المفهوم لا نسيء إلى تاريخ الإسلام وحده وإنما نسيء إلى تاريخ الإنسانية كلها إذ نُهْدر بذلك قيمة أخلاقية قدرتها وأجلتها الإنسانية عبر تاريخها وفي جميع عصورها وفي مختلف أديانها ، وهي قيمةالزهد في عرض الدنيا وأشيائها ومتاعها وأدواتها لا عن جهل بها ، ولا عن عجز عن استعمالها ، ولكن ادراكا لقيمتها الحقيقية وهي التغير والزوال إيثارا لما هو أبقى ، وهذه أعلى مراتب الإدراك ، والقدرة على ضبط النفس، وهي أرقى مراتب الأخلاق أيضا ، إن علينا أن نستعيد ثقتنا في أنفسنا والتي فقدناها أمام ضغط الفكر الغربي والحضارة الغربية ، إننا إن فعلنا ذلك تخلصنا من أسر المصطلحات ، التي استعبدت عقولنا لحساب فكر الغرب وحضارته ، هذه المصطلحات التي لا تمثل مقياسا إنسانيا شاملا تقاس به الأفكار والمعتقدات والحضارات - كما يزعمون - وإنما تمثل وجهات نظر خاصة للأفكار والمعتقدات ، والحضارات تمثل عقول مبتدعيها ، وقد توافق الحق أو تخالفه فيما يتعلق بالآخرين ؛ لو وثقنا في أنفسنا لتحررنا ، ولو تحررنا لرأينا الأشياء على حقائقها ، ولعرفنا أنفسنا على حقائقها . . »[١] . ولو فعلنا ذلك لعرفنا أن الحضارة الإسلامية قد قامت على عكس ما ذهب اليه الكاتب على أساس راسخ أصيل ، وأنها تمثل بما حققته إنجازا لا نظير له في تاريخ البشر القديم والحديث ، ولكي ندلل على هذه الحقيقة الهامة نحب أن نلفت النظر الى أن العلم التجريبي حين قام عند المسلمين على أساس من الايمان بالله وبأنه خالق العالم والناس ، وبأن أصل الناس واحد وربهم واحد صدروا في علمهم عن خشية لله ، واحترام لكرامة الإنسان فوضعوا ثمرات علومهم في إصلاح الدنيا وخدمة الناس فنشروا العلم وجعلوه حقا

(١) الدارة ، العدد الرابع ، السنة الخامسة . ص ١٥٣ / ١٥٤ .

مشاعا في الناس ، ووفروا العلاج لكل مريض ، وعبدوا الطرق ، وأمنوا السبل ، ولم يفرقوا في الاستفادة من ثمرات ذلك بين مسلم وغير مسلم ، وحين نقلت مناهج العلم إلى أوربا وعزلت عن أصلها الإسلامي ، وربطت بميراث الغرب الوثني الإلحادي سخرت ثمرات العلم لقهر الإنسان ، والاستعلاء في الأرض ، وحسبنا أن نعرف أن عصر ازدهار العلم التجريبي في أوربا هو عصر الاستعمار والاستغلال والسيطرة الأوربية على بقية العالم بغياً وعدواناً وفساداً في الأرض . . . .

المنطق الإغريقي والعلوم الإسلامية : -

نتتقل بعد ذلك إلى المسألة الثانية التي أثارها الكاتب وهي زعمه أن المنطق الصوري قد قدم وسيلة ناجعة لتكوين إطار علمي منطقي لكل علوم المسلمين ، ولولاه لما كان في استطاعة العرب وضع علم النحو وتبويب مادته وكذلك بقية العلوم ! وهذا الكلام لا يقوله إنسان عنده أدنى دراية بالقيمة الحقيقة للمنطق الصوري أو أثره في الفكر الإنساني عامة والفكر الإسلامي خاصّة .

وحسبنا أن نعرف أن العلماء الغربيين حين أخذوا مناهج العلم التجريبي عن المسلمين وطبقوها في مجال الظواهر ، تبين لهم مدى الدمار الذي لحق بالفكر الإنساني بسبب المنطق الإغريقي ، فنقدوه نقداً عنيفا ولم يخرجوا في ذلك عما سبق أن قرره الأصوليون والتجريبيون المسلمون حول حقيقة هذا المنطق . فقالوا إن هذا المنطق قد ادعى لنفسه القدرة على معرفة حقائق الأشياء وماهياتها وهي من الأمور المغيبة التي لا تخضع لمناهج البحث العلمي الإنساني ، كما نقدوه على أساس أنه يهتّم بالصور العقليّة للتفكير بصرف النظر عن مطابقة هذه الصور للواقع ، كما ذهبوا إلى القول بأن هذا المنطق عقيم وغير منتج ولا يوسع دائرة المعرفة الإنسانية بالكشف والابتكار ، وإنما

يحصر دائرة هذه المعرفة فيما هو معروف سلفا .

هذا الكلام سبق إلى تقريره علماء الأصول المسلمون الذين أرسوا قواعد المنهج العلمي الاستقرائي بعيداً تماما عن تأثير المنطق الاغريقي ، وليس أشنع من القول بأن المسلمين قد أخذوا المنطق الاغريقي وبنوا عليه علومهم ، يقول الدكتور سامي النشار في بيان موقف المسلمين من هذا المنطق « ولم يكن موقف الشافعي من المنطق الأرسطوطاليسي سلبيا فحسب ، فاقتصر على عدم التأثر به ، بل كانت فيه ناحية ايجابية هي مهاجمة هذا المنطق مهاجمة شديدة تصل به إلى حد التحريم . وعلل هذا الهجوم بعلل مختلفة أهمها: استناد المنطق الأرسطوطاليسي إلى خصائص اللغة اليونانية، واللغة اليونانية مخالفة للغة العربية ، فأدى تطبيق منطق الأولى على الثانية إلى كثير من التناقض »[1] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيم الرد على المنطقيين « أما بعد ، فإني كنت دائما اعلم ان المنطق اليوناني، لا يحتاج اليه الذكي ولا ينتفع به البليد . . ويقول: وتبين لي أن كثيرا مما ذكروه في أصولهم في الإلهيات وفي المنطق هو من أصول فساد قولهم في الإلهيات[2] . ويقول : وقد كانت الأمم قبلهم (أي قبل مناطقة الاغريق) تعرف حقائق الأشياء بدون هذا الوضع (أي اصطلاحات المنطق) . وعامة الأمم بعدهم تعرف حقائق الأشياء بدون وضعهم . . وجماهير العقلاء من جميع الأمم يعرفون الحقائق من غير تعلم منهم لوضع أرسطو ، وهم إذا تدبروا أنفسهم وجدوا أنفسهم تعلم حقائق الأشياء بدون هذه الصناعة الوضعية . . »[3] .

---

(١) مناهج البحث ص ٧٠ / ٧١ .
(٢) الرد على المنطقيين ص ٣ / ٤
(٣) نفس المصدر ص ٢٨ .

ويقول النشار « أما المتكلمون والأصوليون الأولون ، فلم يقبلوا المنطق الأرسطوطاليسي على الإطلاق ، وحاولوا إقامة منطق جديد بالكلية في جوهره . ووقف فقهاء أهل السنة والجماعة من المنطق الأرسطوطاليسي بل من المنطق اليوناني على العموم موقف العداوة العامة . . أما الأبحاث اللغوية ، وبخاصّة النحو (وعلى عكس ما ذكر الكاتب) فقد بقيت بمنأى عن هذا المنطق اليوناني حتى تكون علم أصول النحو على يد أبي علي الفارسي وابن جنى جزئيا ثم اكتملت صورته على يد ابن الأنباري ونضج نضوجه الكامل في ابحاث السيوطي ، ولم يتأثر علم أصول النحو بالمنطق الأرسطوطاليسي حتى زمن السيوطي ، بل احتضن منطق المتكلمين والأصوليين .. ولم يقبل فلاسفة التاريخ ولا رواد علم الاجتماع السياسي المنطق الأرسطوطاليسي بل طبقوا في أبحاثهم المنطق الإسلامي الخالص ،ونجد نفس الأمر في دائرة العلماء التجريبيين من علماء الطبيعة والكيمياء ،وفي دائرة الأطباء ، فقد طبقوا في أبحاثهم التجريبية منطق الأصوليين وهو منطق استقرائي ورفضوا بالكلية منطق أرسطو القياسي . . »[١] .

إن هذه القضية خطيرة ومتشعبة بصورة لا يمكن بسطها هنا ، ولكن أريد أن أؤكد أن المنطق اليوناني كان كارثة على الفكر البشري في كل العصور وذلك بكل ما تعنيه كلمة كارثة من معنى ، فقد أفسد هذا المنطق علم الإغريق أنفسهم ، ثم أفسد بعد ذلك الديانتين اليهودية والمسيحية حين تسرب إليهما ، ثم أفسد بعد ذلك علوم المسلمين حين تغلغل فيها ، وما لاحظه الكاتب من أن الفقهاء في القرون المتأخرة ، أصبحوا يدورون في نطاق الشروح والمناقشة الجامعة حول المسائل المقررة ، وما لاحظه من ظهور التعقيدوالجري وراء الدقائق الجدلية في مجال علم الكلام ،بل وفي غيره من

(١) مناهج البحث ص ٢٧ / ٢٨ .

العلوم إنما كان نتيجة لهذا المنطق ، وقد كانت العلوم الإسلامية بخير طالما كانت قائمة على أصول المنطق الإسلامي المستمد من كتاب الله ، وطالما كان علماء المسلمين واعين بخطورة المنطق الاغريقي على العلم بسبب عقمه ، وانفصامه عن الواقع ، فلما أخذوا بهذا المنطق أفسد عليهم كل شيء ، يقول ابن تيمية « وما زال نظار المسلمين يعيبون طريقة أهل المنطق ويثبتون ما فيها من العي واللكنة وقصور العقل وعجز المنطق ويثبتون أنها إلى فساد المنطق العقلي واللساني أقرب منها إلى تقديم ذلك . ولا يرضون من أن يسلكوها في نظرهم ومناظراتهم لا مع من يوالونه ولا مع من يعادونه »[1] ووضعوا بجانب هذا منطقاً مخالفاً للمنطق الارسططاليسي . ثم أتى أبو حامد الغزالي فدعا إلى مزج المنطق بعلوم المسلمين « وإنما كثر استعمالها من زمن أبي حامد فإنه أدخل مقدمة في المنطق اليوناني في أول كتابه المستصفى وزعم أنه لا يثق بعلم من لا يعرف المنطق وصنف فيه معيار العلم ومحك النظر ، وصنف كتاباً سماه « القسطاس المستقيم »[2] ثم غير الغزالي فكرته عن المنطق ، ولكن بعد أن أحدث دفاعه عن هذا المنطق أثره السيء على عقول المسلمين ، فقد بين الغزالي في آخر كتبه كما يقول ابن تيمية . أن طريقتهم أي (المناطقة) فاسدة لا توصل إلى يقين . وذمّها أكثر مما ذم طريقة المتكلمين . وكان أولاً يذكر في كتبه كثيراً من مقالاتهم إما بعبارتهم . وإما بعبارة أخرى . ثم في آخر أمره بالغ في ذمهم وبين أن طريقهم متضمنة من الجهل والكفر ما يوجب ذمها وفسادها أعظم من طريقة المتكلمين[3] . ولكنه فعل ذلك بعد أن فتح الباب إلى إدخال المنطق في علوم المسلمين ، فقد صار كثير من النظار بعده يدخلون المنطق اليوناني في علومهم ـ كما يقول ابن تيمية ـ حتى صار من يسلك طريق

(١) نفس المصدر ص ١٣٨ .
(٢) نفس المصدر ص ١٩٤ / ١٩٥ .
(٣) الرد على المنطقيين ص ١٩٥ ، ١٩٨ .

هؤلاء من المتأخرين يظن ـ كما يفعل كاتبنا ـ أنه لا طريق إلاَّ هذه ، ومع ذلك فقد بقي فقهاء أهل السنة والجماعة وحدهم (والذين يرميهم الكاتب بالجمود) ثابتين على منهج الإسلام. يقول ابن تيمية : « إنه ما زال العقلاء والفضلاء من المسلمين وغيرهم يعيبون ذلك ـ أي منطق اليونان ـ ويطعنون فيه . وقد صنف نظار المسلمين في ذلك مصنفات متعددة . وجمهور المسلمين يعيبونه عيباً مجملاً لما يرونه من آثاره ولوازمه الدالة على ما في أصله مما يناقض العلم والإيمان ، ويفضي بهم الحال إلى أنواع من الجهل والكفر والضلال »[1].

.. لم يتخذ المسلمون إذن من المنطق الإغريقي إطاراً علمياً لكل علومهم كما زعم الكاتب وإنما الصحيح أنهم رفضوه وهاجموه ، ولم يرفضوه عن جهل بقيمته ، وإنما عن علم بخطره، وانطلاقاً من المنهج العلمي الصحيح الذي أرسى الإسلام قواعده المنهجية . ذلك أن نزول القرآن لم يكن كما زعم الكاتب تبشيراً بدين جديد ، وإنما كان رداً للبشرية إلى الدين الحق الذي تواترت به الأنبياء جميعاً حتى ختموا بمحمد ﷺ ، وكان نزول القرآن أكبر حركة تصحيحية لمسيرة الفكر الإنساني ، لأنه حرر العقل الإنساني من أسر المنهج الصوري في التفكير والذي قام على أساس المنطق اليوناني، وهو الذي أدى إلى عزل الفكر الإنساني عن العالم وحصره في مقولات ذهنية عقيمة غير منتجة تمثل عجز العقل الإغريقي عن الاتصال الصحيح بمصادر المعرفة الحقيقية ، لقد كانت أكبر خدمة أسداها القرآن الكريم إلى الفكر الإنساني أنه نبهه إلى قيمة هذا العالم ، وإلى دلالته على بديع صنع الله في خلقه ، ولم يكن الهدف من هذا التوجيه هو مجرد النظر إلى العالم ، وإنما كان الهدف الأساسي هو إحكام الصلة بين العقل والعالم ، باعتبار أن هذا العالم

---

(١) نفس المصدر ص ١٩٨ .

هو المصدر الأساسي للمعرفة البشرية الصحيحة بالعالم ، وبآثار قدرة الله فيه . لقد أمرنا الله تعالى في كتابه بالنظر إلى كل ما يقع تحت الملاحظة في السموات والأرض ، ونبهنا إلى أن الله تعالى قد ركب هذا العالم على سنن تمكن الإنسان من تسخيره واستغلاله لمصلحة الإنسان ، حتى يستفيد الإنسان من نعم الله ويشكره عليها ، وقد أبطل الله تعالى بهذا الأسلوب العلمي منهج النظر الفلسفي الذي أجهد العقل ، وبدد طاقاته دون طائل ، بحثاً وراء حقائق الأشياء ومبادئها ، وندد بذلك الأسلوب العقيم الذي يبحث عبثاً عما وراء الأشياء ، مما لا تتاح معرفته إلا بوحي الله تعالى وقد عبر الشهرستاني عن حيرة العقول في متاهات البحث الفلسفي العقيم بقوله :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن، أو قارعاسن نادم

وعبر عن هذه الحيرة أبو عبد الله الرازي بقوله :

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قال وقالوا(١)

لقد ظلت الحركة العلمية عند المسلمين مزدهرة إلى أن فتح الإمام الغزالي الباب أمام المنطق الإغريقي ليغزو العلوم الإسلامية ويحل فيها محل منهج العلم الإسلامي رغم ندمه على ذلك من بعد ، ولكن العلماء المتأخرين تأثروا بدعوته فأفسدوا عقولهم وعلومهم ، وانتهى الأمر بالحركة العلمية الإسلامية المزدهرة إلى الركود والجمود .

بقيت هناك مسألتان تتفرعان على قضية المنهج العلمي الإسلامي والمنطق الإغريقي . وهي قضية السلفية والعقل ، والسلفية والفلسفة .

---

(١) ابن تيمية ، موافقة صحيح المنقول ص ٩٢ / ٩٣ .

السلفية والعقل :

لقد ردد الكاتب ترهات المستشرقين التي تزعمُ أن المعتزلة يمثلون العقل في مواجهة النص أو الوحي ، بينما يمثل أهل السنة والجماعة أو السلفيون النص في مواجهة العقل . لقد سبق أن قلت أن أهل السنة هم ورثة الميزان الذي جاءت به الأنبياء و الميزان هو المنهج العلمي الصحيح فالقول بأن المعتزلة يمثلون العقل في مقابلة النص هو جهل أو افتراء ، ذلك أن من أهم ما دعا إليه الأنبياء هو تحرير العقل الإنساني من كل الضلالات والأوهام والأباطيل والأساطير التي استعبدته بها أوهام وأهواء الكهان والأحبار والفلاسفة والزنادقة عبر التاريخ ، ومنهج الأنبياء (وعلى هديهم سار أهل السنة) هو تصحيح مناهج التفكير العقلي بتصحيح طرق الاستدلال ، وحين واجه أهل السنة الفرق المبتدعة والضالة والمتشبعة بأفكار الكهان والأحبار والفلاسفة لم يكونوا يواجهون قوماً يستعملون عقولهم استعمالاً سليماً ، وإنما كان يواجهون قوماً فسدت عندهم مناهج التفكير ، والتوت عليهم مسالك الاستدلال ، لأن عقولهم قد أثقلت بأوهام وضلالات ظنوا أنها هي العقل ، وهي ليست من العقل في شيء ، فلم يعارض المعتزلة أو غيرهم وحي الله الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بدليل عقلي ، وإنما عارضوه بأوهام وأباطيل ورثوها وحسبوها أدلة عقلية ، يقول إمام أهل السنة في عصره وفي كل العصور التي جاءت بعده شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهو واحد من أبرز الذين انتصروا للعقل وحفظوا عليه كرامته بمنهج علمي صحيح في تاريخ الفكر الإسلامي كله في هذه القضية الدقيقة ما يلي : « لو سوغ للناظرين أن يُعْرضوا عن كتاب الله ويعارضوه بآرائهم ومعقولاتهم ، لم يكن هناك أمر مضبوط يحصل لهم به علم ولا هدى ، فإن الذين سلكوا هذه السبيل كلهم يخبر عن نفسه بما يوجب حيرته وشكه ، والمسلمون يشهدون عليه بذلك ، فثبت بشهادته وإقراره على نفسه

وشهادة المسلمين الذين هم شهداء الله في الأرض (تأمل هذه العبارة) أنه لم يظفر من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه بيقين يطمئن إليه ، ولا معرفة يسكن بها قلبه ، والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولاً صريحاً يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوي المعقولات ، فقالوا : إن قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول فصار ما يدعى معارضة للكتاب من المعقول ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيح ، إما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الأمة ، وإما بظهور تناقضهم بظهور الارتياب فيه ، وإما لمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم ، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات ، وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح وبطلانه . فإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر الى الغاية ، وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات ، ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض الكتاب ، بل إما الى حيرة وارتياب ، وإما إلى اختلاف بين الأحزاب ، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذهن والذكاء ومعرفة ما سلكوه من العقليات . . ؟

فهذا وأمثاله ، ما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه إلا بما هو جهل بسيط أو جهل مركب . . »[1] ، والخلاصة هي أن المعتزلة أو غيرهم لا يمثلون العقل في مقابلة النص ، وإنما يمثلون الأوهام والضلالات التي ورثوها عن المذاهب والفلسفات الباطلة التي ضل أصحابها عن الحق في غيبة هداية الله التي جاء بها الوحي ؛ أما الممثلون الحقيقيون للعقل فهم أهل السنة ممن تعلموا من كتاب الله أسلوب النظر العقلي الصحيح الذي يعصم العقول من مزالق الأهواء والأوهام ، وهؤلاء هم الذين فجروا ينابيع المعرفة الإنسانية بهداية الله لهم على نحو لم تعرفه البشرية في تاريخها القديم ، وهم الذين أطلقوا العقل من قيوده ليشق طريقه في

(١) موافقة صحيح المنقول ص ٩٦ / ٩٧

مجالات من البحث والنظر لم تخطر لعاقل من قبل على بال . .

وقبل أن أختم حديثي عن المعتزلة أنبه إلى خطأ تاريخي وقع فيه الكاتب ، وهو خطأ يدل على عدم التدقيق في إيراد الأخبار يقول الكاتب « لكن المعتزلة من أمثال ابن الراوندي الذي انكر النبوة بالغوا في استخدام العقل . . وابن الراوندي ليس من المعتزلة وإنما هو مجوسي ملحد قال المعتزلة كما قال أهل السنة بالحاده وكفره والروندية جماعة ظهرت في سنة ١٤١ هـ ، وهم قوم خراسانيون على رأي أبي مسلم « الخراساني » صاحب الدعوة العباسية » يقولون بتناسخ الأرواح ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور ، وأن الهيثم بن معاوية هو جبريل ، وقد أتوا إلى قصر المنصور وطافوا فيه بدلاً من الكعبة » انظر هامش فضائح الباطنية للغزالي ص ١٧٤ / ١٧٥ .

السلفية والفلسفة :

ثم ننتقل إلى القضية الأخيرة وهي قضية السلفية والفلسفة والتي يقول فيها الكاتب مردداً قول المستشرقين الحاقدين على الإسلام وأهله : « وقف الإمام ابن حنبل في الطرف الآخر ورفض كل فكر مستورد ، ودار الصراع بين الحنابلة والسلطة وعذب ابن حنبل ، ثم يأتي عصر الخليفة المتوكل العباسي ليفتح صفحة السلفية ويمنع تدريس الفلسفة . . ويرى الكاتب أنه لو تم تفاعل صحيح بين هذه الفلسفة وبين العقيدة الإسلامية الصحيحة لتم تفاعل جيد وقامت عليه حضارة إسلامية أصيلة راسخة الجذور متصلة الحلقات ، وتم توازن مقبول ، ثم يقول « وللغزالي كتاب مشهور هو إحياء علوم الدين ، وهاجم تدخل الفلسفة في شئون الدين لأن مجال العقائد الدينية يختلف عن مجال الفلسفة ، ثم ظهر الشيخ ابن تيمية في القرن الثامن الهجري . . وقد هاجم البدع التي شوهت جمال الدين وهاجم آثار الفلسفة

التي أحدثتها في الدين . وحصر فكره في نطاق أضيق من النطاق الذي تحرك فيه الغزالي لأن همه اتجه إلى ناحية السنة والجماعة » .

وهكذا يرى الكاتب أن اتجاه أهل السنة والجماعة يمثل ضِيق الأفق ، والبعد عن التفكير العلمي ، بينما تمثل الفلسفة في رأيه سعة الأفق والمنهج العلمي الصحيح ، وقد أتى هذا الفهم المشوه من شياطين الاستشراق الذين نجحوا في تثبيت هذه الخرافة التي تقول أن الفلسفة اليونانية هي التي تمثل العقل ، وحرية الفكر والمنهج الصحيح للتفكير ، وأن المسلمين لم يعرفوا التفكير إلا عن طريق الاحتكاك بها ، وهذا من أعظم الكذب ، ذلك أن أعظم عمل قام به المسلمون من أهل السنة والجماعة هو كشف الستار عن أباطيل الفلسفة وزيفها ، وهي الأباطيل الذي تنبه إلى بعض منها المفكرون الغربيون في العصر الحديث وهاجموها من أجلها .

إن أهل السنة لم يردوا الفلسفة اليونانية رد الجاهل بقيمتها ، وإنما ردوها رد العالم المدقق الخبير بزيفها وفسادها ، فالفلسفة الإغريقية كما حقق ذلك علماؤ نا من أهل السنة والجماعة ، وكما قرر ذلك الباحثون الغربيون أنفسهم اليوم هي صورة الفكر الإغريقي الوثني المحصور في نطاق العالم المادي ، ذلك أن الفلاسفة الإغريق لم يستطيعوا في غيبة هداية الله عنهم أن يخرجوا الفكر اليوناني من متاهة التفكير المادي الوثني التي ضل فيها ، يستوي في ذلك الفلاسفة المؤلهون منهم وعلى رأسهم سقراط وأفلاطون وأرسطو أو الفلاسفة الماديون ، ففيما يتعلق بالأمور المغيبة التي لا يوجد مصدر صحيح لها غير الوحي الإلهي ، لم تتجاوز فلسفات المؤلهين في (الميتافيزيقا) أي ما وراء الطبيعة كما يقول الفلاسفة ، أو عالم الغيب (كما يقول الإسلام) العالم المادي ، ولم يتجاوز تفكير الفلاسفة الإغريق في هذه المسائل نطاق الفروض والتخمينات التي تعكس في حقيقتها صوراً مشوهة للعالم المادي على العالم المغيب ، فقد آمن سقراط بالآلهة الوثنية ومجدها ، كما أن فكرة الألوهية عند

أفلاطون مضطربة اضطراباً شديداً لأن كل شيء عند أفلاطون إلٰهي ، فمثل الخير والجمال عنده آلهة ، والنفس العالمية كذلك . والكواكب آلهة أما أرسطو الذي يسمى عندهم المعلم الأول ، فإنه برغم كل ما يقال عن تأليهه وثني ملحد ، وهو المسئول عن تثبيت التفكير المادي في الفكر الغربي أكثر من غيره ذلك لأنه في محاولته العقلية الفاشلة لتنزيه الإله عن الحاجة والنقص بمقتضى تحكم عقلي محض قد ارتكب أفحش خطأ في ذات الإله الحق الذي لم يعرفه قط ، وذلك حين جرده سبحانه وتعالى من كل قدرة على الخلق والتدبير ، وزعم أن العالم قديم ، وأنه مستغن عن الإله بنظامه الخاص، ذلك النظام الخيالي الذي خلع عليه أرسطو كل صفات الإله التي تتعلق بالخلق والتدبير وسمى ذلك النظام طبائع الأشياء ، وهذه الطبيعة المختلقة هي التي تأسس عليها الفكر الغربي الإلحادي بعد وأصبح يرد كل صور الخلق إليها، وأصبح جهالنا يرددون دون وعي مثل الغربيين هذا الكفر فيقولون فعلت الطبيعة . . لقد أرسى أرسطو تفكير الوثنية اليونانية على أساس منطق جدلي خداع حتى حق للدكتور علي النشار أن يسميه بحق بالسوفسطائي نسبة إلى السوفسطائية الذين ظهروا في اليونان وبرعوا في تلبيس الحق بالباطل بجدل خداع . لقد عرف المسلمون الفلسفة اليونانية ونقدوها وردوها ولم يردوا منها شيئاً قط له قيمة علمية تنفع الناس ، وإنما ردوا أوهاماً وأباطيل أفسدت الفكر وأفسدت الدين وقطعت الطريق على التفكير العلمي السليم وحبست الفكر البشري آلافاً من السنين في جدل عقيم ، حتى نزل الكتاب فاكتسح هذه الأباطيل وأقام مقامها العلم الصحيح الذي نفع الناس ومكث في الأرض .

طريق المسلمين إلى الحضارة :

وأخيراً وبعد ذلك التصحيح الضروري لهذه الأباطيل التي حشدها

الكاتب في مقاله أقول للمسلمين إذا أرادوا استئناف رسالتهم الحضارية في العالم فإن عليهم أولاً : أن يعرفوا تاريخهم معرفة صحيحة ، وأن يستمدوا هذه المعرفة من مصادر صحيحة ذلك أن تدوين تاريخ الإسلام كما يقول العالم المحقق الشيخ محب الدين الخطيب في تعليقه على كتاب العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر العربي ، إنما تولته ثلاث طوائف : طائفة كانت تنشد العيش والجدة من التقرب إلى مبغضي بني أمية مما تكتبه وتؤلفه . وطائفة ظنت أن التدين لا يتم ، ولا يكون التقرب إلى الله إلا بتشويه سمعة أبي بكر وعمر وعثمان وبني عبد شمس جميعاً . وطائفة ثالثة من أهل الإنصاف والدين كالطبري وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير ـ رأت أن من الإنصاف أن تجمع أخبار الأخباريين من كل المذاهب والمشارب ـ كلوط بن يحيى الشيعي المحترق ، وسيف بن عمر العراقي المعتدل ـ ولعل بعضهم اضطر إلى ذلك ارضاء لجهات كان يشعرُ بقوتها ومكانتها . وقد أثبت أكثر هؤلاء أسماء رواة الأخبار التي أوردوها ليكون الباحث على بصيرة من كل خبر بالبحث عن حال راويه . وقد وصلت إلينا هذه التركة لا على أنها هي تاريخنا ، بل على أنها مادة غزيرة للدرس والبحث يستخرج منها تاريخنا ، وهذا ممكن وميسور إذا تولاه من يلاحظ مواطن القوة والضعف في هذه المراجع ، وله من الألمعية ما يستخلص به حقيقة ما وقع ويجردها عن الذي لم يقع ، مكتفياً بأصول الأخبار الصحيحة عن الزيادات الطارئة عليها . وإن الرجوع إلى كتب السنة ، وملاحظات أئمة الأمة مما يسهل هذه المهمة »[1] .

ثانياً : أن عليهم أن يصححوا مسيرة العلم بعد أن انحرفت عن خطّها الصحيح على يد العلماء الغربيين بعد أن عزلوا مناهج البحث العلمي عن أصلها الصحيح وهو عقيدة الإسلام ومناهجه في النظر ، وربطوها بعقائدهم الوثنية الإلحادية الفاسدة ومناهجها في النظر ، وعليهم ألا يقبلوا

---

(١) هامش العواصم ص ١٧٧ / ١٧٨ .

من علم الغرب إلا ما حققه البحث ، وأثبتته التجربة بطريقة قطعية ، وأن يعرضوا ذلك على مناهج الإسلام وموازينه فما صح فيها فهو الصحيح ، وما بطل منها فهو الباطل مهما بلغت شهرته ، ولن يكون هذا الباطل إلا التفسيرات والنظريات التي تقوم على الظنون والأوهام ، لأن الحقيقة العلمية الثابتة ثبوتاً قطعياً عن طريق منهج صحيح من مناهج البحث المعتبرة ، لا يمكن أن تصطدم مع أصل شرعي لأن كلا منهما من عند الله ، لأن الله هو الذي خلق الأشياء وقدرها ، وهو الذي أنزل الكتاب. وما عمل العلماء في الأشياء إلا الكشف عن سنن الله في خلقه ، وإن هذا الخلط الذي حدث بين البحث العلمي وتراث الغرب الوثني الفلسفي الإلحادي قد جنى على البحث العلمي جناية كبيرة . ولقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الباحثين الغربيين حتى لقد دعى أحدهم وهو (كلود برنار) إلى ضرورة التخلص من النظم الفلسفية ، كما يفعل الإنسان حينما يحطم سلاسل العبودية العقلية ، ذلك أن الباحثين الغربيين كما يقول (الكسيس كاريل) سواء كانوا « بيولوجيين أو معلمين أو اقتصاديين أو علماء إجتماع ، كانوا إذا ما واجهتهم مشاكل شديدة التعقيد ، غالباً ما يستجيبون إلى الاغراء الذي يستحوذ عليهم لكي يبنوا نظريات ثم يقلبونها بعد ذلك إلى معتقدات ومن ثم تبلورت علومهم ، على شكل تراكيب شأنهم في ذلك شأن المتعصبين للديانات »[١] .

إن المخرج الوحيد من هذه الأزمة التي تأخذ بخناق العالم لا يكون إلا بإعادة ربط البشرية بعلم الإسلام الذي تصح به العلوم ، وإلا بعد ربط العالم بخالقه الحق ، فيعرف العلماء والناس قدرة الله عليهم وعلى العالم ، فيتواضعوا له ويصرفوا العلم إلى ما فيه خير البشر بدلاً من أن يكون كما هو الآن أداة بغي وتسلط وفساد في الأرض . . ؟

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ٤٨ / ٤٩ .

القسم الثاني

● منهج خاص لدراسة التاريخ الإسلامي

منهج خاص لدراسة التاريخ الإسلامي . .

. . يعود اهتمامي بدراسة التاريخ الإسلامي إلى أكثر من ثلاثين عاماً ، في ذلك الوقت كانت الجامعة المصرية التي انشئت في أول أمرها لأهداف وطنية خالصة قد تحولت على يد لطفي السيد إلى جامعة علمانية تنافس الأزهر وتضيق عليه الخناق ، وكانت كلية الآداب خاصة تحت رئاسة لطفي السيد ثم طَه حسين قد تحولت إلى وكر للمستشرقين ، وكان كلًا منهما مخلصاً شديد الإخلاص لمناهج المستشرقين التي تتلمذ عليها ويرى فيها المثل الأعلى للمنهج العلمي ، في ذلك الوقت دار حوار عنيف بيْن طَه حسين وأنصار المنهج الإستشراقي من جهة وبين العلماء المسلمين الذين أحسوا بخطر هذا المنهج وكشفوا عيوبه من جهة أخرى . في ذلك الوقت قال طَه حسين « أنه كان لسنة ١٩١٥ في مصر مذهبان في درس الأدب ، أحدهما مذهب القدماء والآخر مذهب الأوربيين استحدثته الجامعة المصرية بفضل الأستاذ نلينو ، ومن زامله وخلفه من المستشرقين أمثال جويدي وفييت وقد عهدت إليهم بتدريس تاريخ الأدب ، فدرسوه بمناهجهم الحديثة فعلموا الطلاب كيف يبحثون . . وعجزت الجامعة عن دعوة المستشرقين بسبب الحرب فأضافت درس تاريخ الأدب إلى الآداب فلم توفق ، فعلى المستشرقين كان متوقفاً نجاح الجامعة المصرية إلى حد بعيد . . وكيف نتصور أستاذاً للأدب العربي لا يلم ـ ولا ينتظر أن يلم ـ بما انتهى إليه الفرنج المستشرقون

من النتائج العلمية المختلفة ، حين درسوا تاريخ الشرق وآدابه ولغاته المختلفة . . وإنما يلتمس العلم الآن عند هؤلاء الناس ، ولا بد من التماسه عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا ونطير بأجنحتنا ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وتاريخنا وآدابنا »[1] ، ورد عليه كثيرون منهم أحمد فارس الشدياق كما نقل الدكتور فتحي عثمان في كتاب الأضواء عن ذيل الفارياق فقال : إن هؤلاء الأساتيذ لم يأخذوا العلم عن شيوخه . . وإنما تطفلوا عليه تطفلاً ، وتوثبوا توثباً ومن تخرج فيه بشيء ، فإنما تخرج على القسس ، ثم أدخل رأسه في أضغاث أحلام ، أو أدخل أضغاث أحلام في رأسه ،وتوهم أنه يعرف شيئاً وهو يجهله . وكل منهم إذا درس في احدى لغات الشرق أو ترجم شيئاً منها تراه يخبط فيها خبط عشواء فما اشتبه عليه منها رقعه بما شاء ، وما كان بين الشبهة واليقين حدس فيه وخمن ، فرجح منه المرجوح ، وفضل المفضول[2] . ورد شكيب أرسلان قائلاً :

« . . لا يقدر أحد أن يقول أن الشرقيين ليسوا أدرى من الغربيين في آداب الشرقيين ، ولا يقدر أحد أن يدعي أن مرجليوث وغيره من المستشرقين يستطيعون أن يفهموا الكلام العربي أكثر من علماء العرب . وإن من أحمق الحمق أن نظن أن مرجليوث بكونه افرنجياً ، صار يميز الشعر المصنوع ، على لسان الجاهلية من الشعر الجاهلي الأصلي . . وأما هؤلاء المستشرقون المتنطعون - ولا يطلق هذا إلا على نزر منهم - فإذا عثروا على حكاية شاردة ، أو نكتة فاردة ، في زاوية كتاب يكاد يكون محرفاً ، سقطوا عليها تهافت الذباب على الحلوى ، وجعلوها معياراً ومقياساً ، لا بل صيروها محكاً يعرضون عليها سائر الحوادث ، ويغفلون أو يتغافلون عن الأحوال الخاصة والأسباب المستثناة ، ويرجع كل هذا التهور ، إلى قلة الاطلاع في الأصل ،

---

(١) د . فتحي عثمان . أضواء على التاريخ الإسلامي ص ١٥٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٥٩ .

هذا إذا لم يشب ذلك سوء قصْد ، لأن الغربي لم يبرح عدواً للشرق ، ورقيباً له والنادر لا يعتد به »[1] جاء هذا في كتابه الرد على الأدب الجاهلي نقلاً عن الأضواء ، يقول صاحب الأضواء « وقد اعتاصت على المستشرقين كلمات كما وقع في كتاب « تكملة المعجمات العربية » منها : أتان وصحيحها آثار ، ومؤدى ـ مودة ، الإبريسيم ، ألف مائة دينار ـ مائة ألف دينار (إلى آخر ما عدده ابراهيم اليازجي في مجلة الطبيب) . . ومما يؤخذ على المستشرقين اعتمادهم على أصول اللغة ومعظمها لا قواعد له ، فيشرحون على الطريقة الكلامية دون معرفة القصد الذوقي منها . . وثمة تعابير عربية أو دخيلة يشق عليهم فهمها وخاصة إذا استندوا إلى من تقدمهم من مستشرقين وقد كتبوها بالحروف اللاتينية ، التي كثيراً ما لا تفي بحاجة اللفظة العربية ، ومن أخطائهم الأصولية جمع بعضهم زيت الزيتون على زيت الزيتين !! وكلمة لوردين بدلاً من لوردات !! أو كما جمع وستنفلد قطار على قطران !! ، ورد دوزي يقول قطارات فصححها الشيخ اليازجي على قطرات !!![2] ، وقال الأستاذ العقاد كما جاء في الأضواء عن المستشرقين « إنه لمن تحصيل الحاصل أن يقال انهم نشروا كثيراً من الكتب المطوية وأنهم وقفوا على طبعها فأحسنوا إخراجها وتبويبها . . ولكنهم في أصل صناعتهم حفاظ مسجلون يغلب على الجلة منهم ضعف الملكة الأدبية ، ومن كان منهم المانياً أو فرنسياً أو انجليزيا تسأله عن أدباء قومه فلا تسمع منه رأياً يعول عليه فليس من المعقول أن يعطيك رأياً تعول عليه في نقد البحتري والمتنبي والمعري لمجرد علمه باللغة العربية ، فإن العلم باللغة شيء والشعور بذوقها وأسرار مفرداتها وتراكيبها شيء آخر ، وقد وضع عالم من أكبر علمائهم معجماً تاريخياً فقال فيه إن (أخذ) أتى بمعنى (نام) لأن القرآن يقول ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ ! وقس

(١) أضواء ص ١٦٠ .

(٢) أضواء ص ١٦٤ .

على ذلك علمهم بمعاني الأدب والبلاغة ، فإنه في الغالب علم (معجمي) يضع الكلمة أمام الكلمة ولا ينفذ منها إلى اللباب »[1] .

.. ثم كانت فضيحة المستشرقين الذين كتبوا بحث (الغارة على العالم الاسلامي) في مجلة العالم الاسلامي التي كانت تصدر في باريس وهي الفضيحة التي فتحت عيون المسلمين الغيورين على دينهم . .

فقد كتبت المؤيد في ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٣٣٠ كما جاء في الأضواء ما يلي « في فرنسا جمعية اسمها الإرسالية العلمية المغربية مؤلفة من المستشرقين الذين درسوا الكتب الاسلامية والعادات الشرقية واللغة العربية وغيرها من لغات المسلمين خدمة لأهداف جامعات فرنسا السياسية والدينية والاقتصادية . وقبل خمس سنوات أخذت هذه الجمعية تنشر في باريس مجلة كبرى مصورة تصدر في كل شهر اسمها (مجلة العالم الاسلامي) ، يكتب فيها كبار المستشرقين كالمسيو : ل. شاتليه رئيس تحريرها وهو أيضا أستاذ المسائل الاجتماعية الإسلامية في إحدى جامعات فرنسا، وكالمسيو لويس ماسينيون المستشرق الذي كان في مصر منذ سنتين وغيرهما من المشتغلين بالموضوعات الاسلامية . ويذكر القراء اننا كنا ترجمنا بعض أبحاث هذه المجلة منذ صدورها ليطلع القراء على آراء الكتاب الفرنساويين في آدابنا وعاداتنا و. . ولقد كانت هذه المجلة قبل الآن ظاهرة بمظهر علمي تكون الغايات السياسية فيها بالدرجة الثانية إلى أن تم لفرنسا احتلال المغرب . . . فظهرت هذه المجلة كغيرها بمظهرها الحقيقي الذي تكون فيه الدروس العلمية ذريعة لغايات سياسية ودينية . . . من ذلك أنها نشرت في أحد أجزائها الأخيرة بحثا مطولا أو كتابا مفصلاً عنوانه « الغارة على العالم الاسلامي » أو « افتتاح العالم الاسلامي » كشفت فيه عن حقيقة نواياها الاستعمارية . . »[2] .

(١) أضواء ص ١٧٤ / ١٧٥ .

(٢) أضواء ص ١٦٧ / ١٦٨ .

... في ذلك الوقت كان الشباب المسلم الممزق بين التيارات والصراعات يبحث عن منهج علمي محايد نزيه يقرأ به تاريخه الإسلامي ، كان في مصر في ذلك الوقت الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله ، والشيخ محمود محمد شاكر مد الله في عمره ، وكانا يدعوان بحرارة إلى ضرورة اتباع منهج خاص لدراسة التاريخ الإسلامي ،ووجد الشباب المسلم في الشيخين ضالتهما فتتلمذوا على أيديهما وعزفوا عن مناهج المستشرقين المسمومة التي كانت تجرع له تجريعا في الجامعة المصرية ، ومنذ ذلك الوقت بدأت صلتنا بالمنهج العلمي الإسلامي على يد أساتذته المسلمين ، وبدأنا البحث على هدى شيوخنا وما أحب هذه الكلمة إلى نفسي ولكم أتمنى أن استعيض عنها بلقب الدكتور ، الذي أحمله على كره ، والذي يجسد تبعيتنا للغرب الصليبي ؛ كان الشيخ يطلق في الجاهلية على رئيس القبيلة ولم يكن الشيخ عند العرب هو المتقدم في السن فقط ، وإنما هو المتقدم بالعلم والتجربة والمروءة ، وما كانت العرب ـ التي تتهم اليوم من جهال المثقفين من أبنائها بتاريخها بالجهل والتخلف والبدائية ، ـ والله حسبي وحسبها ـ تسود عليها إلا من استكمل شروطاً في عقله وتجربته ومروءته ، فالسيد عند العرب لا يسود بالوراثة والمال وإنما يسود بالمناقب والخصال ، يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :(١) .

وإنـا لقـوم مـا نسـود غـادرا ... ولا نـاكلا عنـد الحمـالـة زمـلا
ولا مـانعـا للمـال فيـما ينـويـه ... ولا عاجزاً في الحرب جِبْساً مغفلاً

ويقول :(٢) .

نسـود ذا المال القليـل إذا بدت ... مروءتـه فينـا وإن كـان معـدمـا

فلما جاء الاسلام أصبح الشيخ هو المتقدم في الدين والعلم ؛ وظل هذا

(١) ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه ص ٢٠٩
(٢) نفس المصدر ص ٢٢٢ .

اللقب مستعملا في الأزهر جامعة الإسلام العريقة الى وقت قريب حتى ابتلي بلوثة التقليد فاستعار اللقب الكنسي من الجامعات العلمانية وأصبح الشيخ الأزهري يسمى اليوم - ويا للفضيحة بالدكتور - والدكتور ، الذي يعتز به الكثيرون اليوم ويتباهون به لقب مأخوذ من التسميات الكنسية ، وهو ، ويااللمفارقة الساخرة يؤكد على مدى اعتزاز الغربيين مع إلحادهم وخروج علمائهم على الكنيسة - بتراثهم الكنسي ، حتى الطيالس الجامعية التي نتبختر بها في المناسبات الجامعيات هي نفسها الطيالس التي ترتديها القسس في الكنائس . . . !!

منهج دراسة التاريخ عند المسلمين : -

فلنمض عن هذا الحديث المحزن المثير للشجن ، ولنعد إلى حديث المنهج . .
تعلمنا المنهج كما قلت على يد شيوخنا ، والذين قادوا خطانا إلى فهم صحيح لتاريخنا الإسلامي ، لقد تبين لنا بوضوح أن أصول المنهج العلمي سواء في مجال التاريخ أو في غيره من العلوم التجريبية أو العقلية قد نمت ونضجت على يد شيوخنا ، ومن هذه المناهج منهج دراسة التاريخ ، ذلك أن من خصائص التاريخ الاسلامي - كما يقول الدكتور فتحي عثمان في الأضواء - طريقة اسناد الروايات إلى أصحابها عبر الأجيال المتلاحقة ، وهذه الطريقة تدعو إلى فحص ما في الكتب القديمة بدقة ، وتمحيص شخصيات الرواية وفقاً للمنهج العلمي الفريد في (الجرح والتعديل) المعروف لدى علماء الحديث ، وما فتىء العلماء المدققون ينبهون إلى مراعاة ذلك في علاج الروايات التاريخية ، وفي مصر كتب الأستاذان الجليلان محب الدين الخطيب ومحمود محمد شاكر فصولاً متعددة يدعوان في حرارة وأمانة للأخذ بهذا المنهج العلمي السلفي الدقيق ، وفي العراق كتب الدكتور جواد علي بحثاً مفصلاً عن« موارد تاريخ الطبري» في (مجلة المجمع العلمي العراقي) . وقد بدت آثار هذه الدعوة إلى مراعاة المنهج العلمي لدى أسلافنا في مناقشة مروياتهم في قليل من المؤلفات

الجديدة . فالدكتور ماجد وهو خريج (السوربون) يقول في كتاب « مقدمة التاريخ الإسلامي » : « لجأ المؤرخون الأوائل إلى تدوين ما استوعبته الذاكرة بالنقل عن فلان عن فلان من الحفاظ الموثوق بهم وهو ما يعرف بالأسانيد . فكان الحفاظ هم الوسطاء بين الحقيقة التاريخية والمؤرخ ، وهذه الطريقة عينها في التاريخ كانت قد اتبعت عند جمع الأحاديث النبوية مما يبين أن التاريخ أخذ طريقة الحديث في أول تأليفه ، بل إن التاريخ كان يجمع من نفس رواة الحديث سلسلة من الأسناد الموثوق بهم . ومن ناحية أخرى اعتبر التاريخ نفسه من وسائل الحديث في (الجرح والتعديل) بالكشف عن أقوال رواة الحديث والتمييز بين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ والكذب والاختراع في الحديث ، ويبين السّخاوي هذه الصلة بين التاريخ والحديث في قوله : إنه لم يستعن على الكذابين في الحديث بمثل التاريخ »[1] هذا هو المنهج الذي يجب علينا استعماله في تصحيح فهمنا للتاريخ الاسلامي ، ولن تعوزنا النصوص الصحيحة ، يقول د . فتحي عثمان « إن من أعظم المفارقات في ديننا أن نكون أغنى الأمم بالنصوص السليمة التي نستطيع أن نصحح بها تاريخنا فنبنيه على أساس قويم من الحقائق العلمية التي لا يتطرق الشك إليها ـ وأن نكون مع ذلك ـ أشد أمم الأرض إهمالاً للإفادة من ذلك حتى بقي تاريخنا مضطرباً كما أراده الذين دسوا فيه ما ليس منه ، وشوهوا من جماله مما جعل المسلمين يسيئون الظن بأمجد صفحات ماضيهم ويجهلون أن الجيل المثالي الوحيد الذي عرفته الإنسانية في تاريخها منذ وجد الناس في الأرض إلى الآن هو الجيل الذي شوه المغرضون سيرته بما دسوه فيه من باطل ، وما اختزلوه من حق »[2] لقد بنى علماء الحديث منهجاً كاملاً لتصحيح الخبر عن النبي ﷺ ، يصلح لتطبيقه على الخبر عموماً إذا استعمله أهل الدراية

---

(١) أضواء ص ٦

(٢) أضواء ص ٢٩٢

بالتاريخ الإسلامي ، لقد اهتم علماء الحديث بتحقيق الخبر عن النبي ﷺ ، وكان اهتمامهم الأساسي منصباً على الخبر المروي بسلاسل الإسناد ، ولا يعني ذلك أنهم أهملوا النظر في الوثائق المكتوبة وبيان قيمتها التاريخية ، ويعرف نقد الوثيقة المكتوبة عند علماء الحديث بالوجادة ، وهذه الكلمة كما يقول الشيخ محمد نجيب المطيعي مما ولده أهل الحديث ، يقول « قال المعافى ابن زكريا النهرواني : قولهم : وجادة فيما أخذ من العلم من صحيفة غير سماع ولا إجازة ولا مناولة ، والوجادة نوعان : حديث وغيره ، فالأول أن تجد بخط من عاصرت سواء لقيته أم لا أو بخط بعض ممن لم تعاصره فتقول :

وجدت بخط فلان أو قرأت بخط فلان، ولا تجزم بذلك إلا إذا وثقت على الوجه المشروع في المكاتبة أنه خطه ، فإن لم تثق بالخط قلت : وجدت عنه ، أو بلغني عنه أو ظننت أنه خط فلان . وحكم الوجادة سواء وثقت أنه بخطه أم لم تثق (الانقطاع) قال ابن الرشيد العطار : الوجادة داخلة في باب المقطوع عند علماء الرواية ، بل قد يقال : إن عدة من التعليق أولى من المنقطع ومن المرسل . . وكره بعض السلف الأخذ عن الصحف غير المسموعة . . وتساهل جماعة من المحدثين في الرواية لما يجدونه بخط الشخص فيقولون عن فلان أنه قال أو أن فلاناً قال أو نحو ذلك ، وقد ذهب بعض المحققين من أصحاب الشافعي إلى أنه يجب العمل به في العصور المتأخرة التي قصرت فيها الهمم وتوسع الناس في الأخذ بالوجادة إذ لو توقف العمل بها لتوقف العمل بالمنقول لتعذر شرط الرواية في هذا الزمان فلم يبق إلا مجرد وجادات » ويعقب المطيعي على ذلك بقوله : « وبالجملة فإن المحدث إذا وثق بالصحيفة أو بالكتاب أمكنه أن يروي بصيغة الجزْم بقوله : قال ، أما إذا لم يحصل الوثوق فليقل : بلغني عن فلان » فهذا نوع من النقد للوثيقة المكتوبة ، أما النقد الذي أوفى فيه المحدثون على الغاية والذي يصلح لتطبيقه على التاريخ ممن يملك البصر والاستعداد فهو نقد الخبر المروي عن طريق

الإسناد وأهم علومه علم الجرح والتعديل ، وهو يندرج تحت علم الحديث دراية، وعلم الحديث دراية يسمى علم أصول الحديث أو علم أصول رواية الحديث أو علم مصطلح الحديث أو مصطلح أهل الأثر »[1]

فأما عن علم الجرح والتعديل وهو يتعلق بنقد أحوال الراوي فيقول المطبعي « يعتمد الحديث على الرجال النقلة الذين هم وسطاء بين مدون الحديث والطرف الأول له ، ولما كان هذا الناقل للخبر مما يتعاظم خطره بتعاظم خطر الحديث الذي يحمله ، ذهب علماء الجرح والتعديل إلى اشتراط صفتين في الراوي لقبول حديثه وهذان الشرطان هما :

١ ـ العدالة ٢ ـ الضبط

فالعدالة : هي الإسلام فهماً وعملاً وتطبيقاً ؛ عاقلاً سليماً من أسباب الفسق بريئاً من خوارم المروءة .

والضبط : أن يكون قوي الحفظ ، ناقلاً للخبر كما تحمله ، إذ الضبط له طرفان (الطرف الأول) وهو التحمل ، فهو عند التحمل ذكي الفؤاد ، قوي الحافظة ، وعند الأداء دقيق العبارة لا يند عنه مما سمعه لفظ ولا معنى ، بعيد عن الخطأ الفاحش والغفلة والوهم . .

ولم يكتف رجال الحديث بتطبيق هذا النقد الذي يتعلق بالرواة على رواة الحديث بل طبقوه على رواة الأخبار ، فقد اتهم الإمام مالك بن أنس وهشام بن عروة بن الزبير،ابن اسحاق بالكذب والتدليس والدجل ، كما اتهمه آخرون بالقدر (أي القول بالقدر) والتشيع ، والنقل عن غير الثقات ، وصنع الشعر ، والخطأ في الأنساب.وقال ابن حنبل في السير عموماً إنها لا تستند إلى أي أساس ، وقال الحافظ العراقي « إن هذه السير جمعت بين الغث والسمين » كذلك نقدوا التفاسير وقالوا عنها انها مراسيل ، ونقدوا

---

(١) بسيط الحديث . محمد نجيب المطيعي

المغازي والقصص وكتب الأدب ،وعامة كتب المؤرخين . يقول القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه العواصم من القواصم . . « إنما ذكرت لكم هذا لتحذروا من الخلق . وخاصة المفسرين والمؤرخين ، وأهل الآداب ، فإنهم أهل جهالة بحرمات الدين ، أو على بدعة مصرين . . فلا تبالوا بما رووا ، ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث ، ولا تسمعوا كلاماً إلا للطبري . . وغير ذلك هو الموت الأحمر ، والداء الأكبر ، فإنهم ينشئون أحاديث فيها استحقار الصحابة والسلف ، والاستخفاف بهم واختراع الاسترسال في الأقوال والأفعال عنهم ، وخروج مقاصدهم عن الدين إلى الدنيا ، وعن الحق إلى الهوى . فإذا قاطعتم أهل الباطل واقتصرتم على رواية العدول ، سلمتم من هذه الحبائل ، ولم تطووا كشحا على هذه الغوائل . ومن أشد شيء على الناس جاهل عاقل ، أو مبتدع محتال . فأما الجاهل فهو ابن قتيبة ، فلم يبق ولم يذر للصحابة رسماً في كتاب (الإمامة والسياسة) إن صح عنه جميع ما فيه ، وكالمبرد في كتابه الأدبي ، وأين عقله من عقل ثعلب الإمام المتقدم في أماليه ، فإنه ساقها بطريقة أدبية سالمة من الطعن على أفاضل الأمة .

وأما المبتدع المحتال فالمسعودي ، فإنه يأتي منه متاخمة الالحاد فيما روى من ذلك ، وأما البدعة فلا شك فيها . فإذا صنتم أسماعكم وأبصاركم عن مطالعة الباطل ، ولم تسمعوا في خليفة ممن ينسب إليه ما لا يليق ويذكر عنه ما لا يجوز نقله ، كنتم على منهج السلف سائرين ، وعن سبيل الباطل ناكبين . فهذا مالك رضي الله عنه قد احتج بقضاء عبد الملك بن مروان في موطأه ، وأبرزه في جملة قواعد الشريعة . . وقال في روايته : « عن زياد بن أبي سفيان » فنسبه إليه وقد علم قصته ، ولو كان عنده ما يقول العوام حقاً لما رضي أن ينسبه ولا ذكره في كتابه الذي أسسه للاسلام ، وقد جمع ذلك كله في أيام بني العباس والدولة لهم والحكم بأيديهم فما غيروا عليه ولا أنكروا ذلك منه لفضل علومهم ومعرفتهم بأن مسألة زياد مسألة قد اختلف الناس

فيها فمنهم من جوزها ومنهم من منعها ، فلم يكن لاعتراضهم إليها سبيل ، وكذلك أعجبهم ـ حين قرأ الخليفة على مالك الموطأ ـ (وتأمل الخليفة العباسي يقرأ الموطأ ويتفقه في الدين !) ذكر عبدالملك بن مروان فيه وإذكاره بقضائه، لأنه إذا احتج العلماء بقضائه فسيحتج بقضائه أيضا مثله ، وإذا طعن فيه طعن فيه مثله . وأخرج البخاري عن عبد الله بن دينار قال : شهدت ابن عمر حيث اجتمع الناس على عبد الملك بن مروان كتب : إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله ما استطعت ، وإن بني قد أقروا بمثل ذلك . وهذا المأمون كان يقول بخلق القرآن ، وكذلك الواثق ، وأظهروا بدعتهم ، وصارت مسألة معلومة إذا ابتدع القاضي أو الإمام هل تصح ولايته وتنفذ أحكامه أم هي مردودة ؟ وهي مسألة معروفة . وهذا أشد من برودات أصحاب التواريخ من أن فلاناً الخليفة شرب الخمر أو غنى أو فسق أو زنى ، فإن هذا القول في القرآن بدعة أو كفر ـ على اختلاف العلماء فيه ـ قد اشتهروا به ، وهذه المعاصي لم يتظاهروا بها إن كانوا فعلوها فكيف يثبت ذلك عليهم بأقوال المغنين والبراد من المؤرخين الذين قصدوا بذكر ذلك عنهم تسهيل المعاصي على الناس وليقولوا إذا كان خلفاؤنا يفعلون هذا فما يستبعد ذلك منا . وساعدهم الرؤساء على إشاعة هذه الكتب وقراءتها لرغبتهم في مثل أفعالهم حتى صار المعروف مُنكراً والمنكر معروفاً ، وحتى سمحوا للجاحظ أن تقرأ كتبه في المساجد وفيها من الباطل والكذب والمناكير ونسبة الأنبياء إلى أنهم ولدوا لغير رشدة كما قال في اسحاق عليه السلام في كتاب الضلال والتضلال ، وكما مكنوا من قراءة كتب الفلاسفة في انكار الصانع وابطال الشرائع لما لوزرائهم وخواصهم في ذلك من الأغراض الفاسدة والمقاصد الباطلة . . وبالوقوف على هذه الفضول تحسن نياتكم ، وتسلم عن التغير قلوبكم على من سبق ، وقد بينت لكم أنكم لا تقبلون على أنفسكم في دينار ، بل في درهم إلا عدلاً بريئاً من التهم ، سليماً من

الشهوة . فكيف تقبلون في أحوال السلف وما جرى بين الأوائل ممن ليس له مرتبة في الدين ، فكيف في العدالة ! »[1] .

وقد علق الشيخ محب الدين على هذا الحديث بتعليقات هامة ، منها أنه دافع عن العالم المحقق الجليل ابن قتيبة وقال « لم يصح عنه شيء مما فيه ، ولو صحت نسبة هذا الكتاب للإمام الحجة الثبت أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة لكان كما قال عنه ابن العربي ، لأن كتاب الإمامة والسياسة مشحون بالجهل والغباوة والركة والكذب والتزوير . ولما نشرت لابن قتيبة كتاب (الميسر والقداح) قبل أكثر من ربع قرن ، وصدرته بترجمة حافلة له ، وسميت مؤلفاته . ذكرت مآخذ العلماء على كتاب الإمامة والسياسة ، وبراهينهم على أنه ليس لابن قتيبة .

وأزيد الآن . . أن مؤلف الإمامة والسياسة يروي كثيراً عن اثنين من كبار علماء مصر وابن قتيبة لم يدخل مصر ولا أخذ عن هذين العالمين ، فدل ذلك كله على أن الكتاب مدسوس عليه » .

وعلق على المبرد بقوله : « المبرد ينزع إلى شيء من رأي الخوارج ، وله فيهم هوى . وإن إمامته في اللغة والأدب لا تغطي على ضعفه في علم الرواية والاسناد ، وإذا كان أبو حامد الغزالي على جلالته في العلوم الشرعية والعقلية لم يتجاوز له العلماء عن ضعفه في علوم الاسناد فأحرى ألا يتجاوزوا عن مثل ذلك للمبرد . وعلى كل حال فكل خبر مما مضى أو سيأتي - في أمتنا أو في أي أمة غيرها - يحتمل الصدق والكذب حتى يثبت صدقه أو كذبه على محك الاختبار وبالبحث العلمي » ، وعلق على المسعودي بقوله : « علي بن الحسين المسعودي يعده الشيعة من شيوخهم وكبارهم . ويذكر له الماقعاني في تنقيح المقال مؤلفات في الوصاية وعصمة الإمام وغير ذلك مما يكشف عن

---

(١) أبو بكر بن العربي ، العواصم من القواصم ص ٢٤٧ / ٢٥٢

عصبيته والتزامه غير سبيل أهل السنة المحمدية . ومن طبيعة التشيع والتحزب والتعصب البعد بصاحبه عن الاعتدال والانصاف » .(١) . أما كيف يؤخذ التاريخ من كتب الأخبار فقد كتب د . فتحي عثمان في الأضواء بحثاً عن كيفية الأخذ من الطبري كمثال فقال « إنما ينتفع بأخبار الطبري من يرجع إلى تراجم رواته في كتب الجرح والتعديل . فتراجم شيوخه مباشرة وشيوخهم توجد في الأكثر في مثل تذكرة الحفاظ للذهبي . وتراجم الرواة الذين كانوا إلى أواخر المائة الثانية توجد في خلاصة تذهيب الكمال للصفي الخزرجي وتقريب التهذيب وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر . والذين تناولهم الجرح من الضعفاء يترجم لهم الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال والحافظ ابن حجر في لسان الميزان . وفي طبقات ابن سعد وتاريخ بغداد للخطيب وتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ الاسلام للذهبي والبداية والنهاية لابن كثير . وإن كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة للراوي ومتى يجوز الأخذ برواية المخالف . ولا نعرف أمة عني مؤرخوها بتمحيص الأخبار وبيان درجاتها وشروط الانتفاع بها كما عنى بذلك علماء المسلمين . وإن العلم بذلك من لوازم الاشتغال بالتاريخ الإسلامي ، أما الذين يحتطبون الأخبار بأهوائهم ، ولا يتعرفون إلى رواتها ، ويكتفون بأن يشيروا في ذيل الخبر إلى الطبري رواه في صفحة كذا من جزئه الفلاني ويظنون أن مهمتهم انتهت بذلك ، فهؤلاء من أبعد الناس عن الانتفاع بما حفلت به كتب التاريخ الإسلامي من ألوف الأخبار . . . ولو أنهم تمكنوا من علم مصطلح الحديث وأنسوا بكتب الجرح والتعديل ، واهتموا برواة كل خبر كاهتمامهم بذلك الخبر لاستطاعوا أن يعيشوا في جو التاريخ الإسلامي ، ولتمكنوا من التمييز بين غث الأخبار وسمينها ، ولعرفوا للأخبار أقدارها بوقوفهم على أقدار أصحابها » جاء ذلك نقلاً عن مقال

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤٨ / ٢٥١ .

نفيس للمرحوم محب الدين بعنوان « المراجع الأولى في تاريخنا - تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري في مجلة الأزهر مجلد ٢٤ ص ٢١٠ جـ ٢ ».(١)

هذا هو المنهج الإسلامي في تحقيق صحة الخبر، والذي يطلق عليه أصحاب المنهج الاستردادي اسم النقد، وما أظنهم عرفوا ذلك على هذا المستوى الرفيع من التحري والتدقيق.

وأذكر مثلاً واحداً على أهمية ذلك المنهج في تصحيح التاريخ الإسلامي، وهو حادثة التحكيم في الحرب بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وهي الحادثة التي عرض لها الأخباريون، ورددها المستشرقون وتلامذتهم على غير علم صحيح فأفسدوا بها رأي المحدثين في سلفهم الصالح وأفسدوا بها دينهم وعقولهم وقلوبهم، يقول ابن العربي « وقد تحكم الناس في التحكيم فقالوا فيه ما لا يرضاه الله، وإذا لحظتموه بعين المروءة - دون الديانة - رأيتم أنها سخافة حمل على سطرها في الكتب في الأكثر عدم الدين، وفي الأقل جهل متين. والذي يصح من ذلك ما روى الأئمة كخليفة بن خياط(٢) والدارقطني(٣) : أنه لما خرج الطائفة العراقية في مائة ألف والشامية في سبعين أو تسعين ألفاً نزلوا على الفرات بصفين، اقتتلوا في أول يوم وهو الثلاثاء على الماء فتغلب أهل العراق عليه. ثم التقوا يوم

---

(١) أضواء ص ٧٢

(٢) هو الإمام الحافظ أبو عمر وخليفة بن خياط العصفري البصري، أحد أوعية العلم، ومن شيوخ الامام البخاري. قال عنه ابن عدي : هو صدوق مستقيم الحديث من متيقظي رواة السنة. توفي سنة ٢٤٠. هامش العواصم ص ١٧٢

(٣) هو الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (٣٠٦ - ٣٨٥) كان مع جلالته في الحديث من أئمة فقهاء الشافعية، وله تقدم في الأدب ورواية الشعر. وجاء من بغداد الى مصر ليساعد ابن حنزابة وزير كافور على تأليف مسنده فبالغ الوزير في اجلاله. قال الحافظ عبد الغني ابن سعيد « أحسن الناس كلاما على حديث رسول الله ثلاثة، علي بن المديني في وقته، وموسى ابن هارون القيسي في وقته. والدارقطني في وقته » هامش العواصم ص ١٧٢.

الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة (سبع وثلاثين) ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت ورفعت المصاحف من أهل الشام ، ودعوا إلى الصلح ، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل حتى يكون الرجلان يحكمان بين الدعويين بالحق ، فكان من جهة علي أبو موسى ، ومن جهة معاوية عمرو بن العاص وكان أبو موسى رجلا تقيا ثقفا فقيها عالما حسبما بيناه في كتاب (سراج المديدين)، أرسله النبي ﷺ إلى اليمن مع معاذ ، وقدمه عمر وأثنى عليه بالفهم،وزعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوعا في القول ، وأن ابن العاص كان ذا دهاء وأرب حتى ضربت الأمثال بدهائه تأكيدا لما أرادت من الفساد ، اتبع في ذلك بعض الجهال بعضا وصنفوا فيه حكايات . وغيره من الصحابة كان أحذق منه وأدهى . وإنما بنوا ذلك على أن عمرا لما غدر أبا موسى في قصة التحكيم صار له الذكر في الدهاء والمكر ؛ وقالوا : إنهما لما اجتمعا بأذرح من دومة الجندل ، وتفاوضا ، اتفقا على أن يخلعا الرجلين . فقال عمرو لأبي موسى : اسبق بالقول . فتقدم فقال : إني نظرت فخلعت عليا عن الأمر ، وينظر المسلمون لأنفسهم ، كما خلعت سيفي هذا من عنقي - أو من عاتقي - وأخرجه من عنقه فوضعه في الأرض . وقام عمرو فوضع سيفه في الأرض وقال : إني نظرت فأثبت معاوية في الأمر كما أثبت سيفي هذا في عاتقي،وتقلده،فأنكر أبو موسى ، فقال عمرو :كذلك اتفقنا،وتفرق الجمع على ذلك من الاختلاف.وعلق أبو بكر بن العربي على ذلك بقوله : هذا كله كذب صراح ، ما جرى منه حرف قط ، وإنما هو شيء أخبر عنه المبتدعة ، ووضعته التاريخية للملوك ، فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله والبدع (تأمل ذلك القول الجليل وافهمه)، وإنما الذي روى الأئمة الثقات الأثبات أنهما لما اجتمعا للنظر في الأمر - في عصبة كريمة من الناس منهم ابن عمر ونحوه - (تأمل هذه الإضافة) عزل عمرو معاوية (وتأمل هذا الصحيح).

ذكر الدارقطني بسنده إلى حضين بن المنذر : لما عزل عمرو معاوية جاء (أي حضين بن المنذر) فضرب فسطاطه قريبا من فسطاط معاوية، فبلغ نبأه معاوية ، فأرسل إليه فقال : إنه بلغني عن هذا (أي عن عمرو) كذا وكذا ، فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه . فأتيته فقلت : أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه ؟ قال : قد قال الناس في ذلك ما قالوا ، والله ما كان الأمر على ما

قالوا ، ولكن قلت لأبي موسى : ما ترى في هذا الأمر ؟ قال : أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . قلت : فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟ فقال : إن يستعن بكما ففيكما معونة ، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما . قال : فكانت هي التي فتل معاوية منها نفسه . فأتيته فأخبرته (أي معاوية) أن الذي بلغه عنه كما بلغه . فأرسل إلى أبي الأعور الذكوان فبعثه في خيله ، فخرج يركض فرسه ويقول : أين عدو الله ، أين هذا الفاسق ، قال أبو يوسف : أظنه قال : « إنما يريد حوباء نفسه ، فخرج إلى فرس تحت فسطاطه فجال في ظهره عريانا ، فخرج يركضه نحو فسطاط معاوية وهو يقول : إن الضجور قد تحتلب العلبة ، يا معاوية ؛ إن الضجور قد تحتلب العلبة (الضجور : الناقة التي ترغو وتعربد عند الحلب). فقال معاوية : « أجل ، وتربذ الحالب فتدق أنفه ، وتكفأ إناءه » . .[1]

. . . ربما يتصور البعض أن المحدثين قد اهتموا بسند الحديث ، ولم يهتموا بمتنه وذلك خطأ ، ذلك أن علم المصطلح يدور على الإثنين معا السند والمتن (أي النص المروي)، ذلك أن مباحثهم تدور كما يقول الدكتور صبحي الصالح في كتاب علوم الحديث ومصطلحه « حول الاسناد والمتن من حيث القبول والرد ، ففي حالة القبول يدرسون الصحيح والحسن ، وفي حالة الرد يدرسون الضعيف والموضوع . . . وفي بحثي الصحيح والحسن قضية مشتركة خلاصتها أن الصحة قد تتناول السند والمتن معا ، أو السند دون المتن ، أو المتن دون السند ، ومثلها الحسن في ذلك ، فلا يحكم بصحة حديث ولا حسنه إطلاقا بل يبين نوع صحته أو حسنه هل وقع في الإسناد أو المتن ، فما كل ما صح سندا صح متنا . . .

وحين يكون الصحيح متواتراً لا ينظر فيه إلى إسناده من حيث تعدد رواته واشتراك الجمع في مثله، بل ينظر إلى متنه بحيث يؤمن تواطؤ هذا الجمع على الكذب في مثله لأن الكذب لا يؤمن تواطؤ الجمع عليه فيما يخالف الحس أو العقل. والمتواتر فوق ذلك ليس من مباحث الإسناد؟ والحسن لذاته حين يرقى إلى درجة الصحيح لغيره لا ينظر فيه إلى كثرة طرقه وأسانيده فقط،

---

(١) العواصم ص ١٨٠/١٧٢ .

بل يلاحظ فيه ـ منذ الخطوة الأولى ـ أنه كالصحيح لذاته في تجرده من كل شذوذ وعلة، وفي الشذوذ تفرد ومخالفة كثيراً ما يكونان في المتن، لذلك قالوا: «لا يجيئك بالحديث الشاذ إلا الرجل الشاذ»، ولذلك أيضاً كرهوا رواية المناكير. وفي العلة ضرب من النقد الذاتي يتناول المتون بالتضعيف من خلال توهين الرواة المدرك بنوع من الإلهام والتعمق في الفهم، لا بحفظ الأسماء والأسانيد، ومع اعترافهم بأن التعليل أكثر ما يتطرق إلى الإسناد لم ينفوا تعليل المتن، فقالوا: لا يطلق الحكم بصحة حديث بالجواز أن يكون فيه علة في متنه، ومع أن الاضطراب أكثر ما يقع في الإسناد، لم يفت النقاد أن ينبهوا على وقوعه في المتن أيضاً، وجاؤوا على ذلك بشواهد.

ونقد (نص) الخبر مكمل ضروري لنقد رواته ، ذلك لأن هذا النوع من النقد مفيد جدا في تمييز الخبر المختلق ، كما كان مفيدا في تمييز الخبر الموضوع ، وقد استند المحدثون كما يقول د . الصالح إلى مقياس اجتماعي في تمييز الموضوع ، فحديث الهريسة موضوع ، وضعه ابن الحجاج اللخمي وكان صاحب هريسة ، ومثله حديث « معلمو صبيانكم شراركم . . » فقد وضعه سعد بن طريق لما ضربوا ابنه . وحديث دخوله عليه السلام حماما بالجحفة موضوع باتفاق الحفاظ لأنه لم يكن في زمانه صلوات الله عليه حمامات ، وقد وضع المحدثون ضوابط يمكن بها تمييز الموضوع ، فاللحن والركة ، ومخالفة العقل أو الحس والمجازفة بالوعد والوعيد ، ومزج الكلام البليغ بعبارات معقدة من عبارات الأصوليين أو المتكلمين ، واختلاق الأحاديث تقربا إلى الطبقة الحاكمة ، كلها مباحث تتعلق بالمتن المروي من حيث إدخال أشياء عليه لا تليق بالنبي ﷺ »[1] ، وكما يفيد ذلك في تمييز الخبر المختلق يفيد فائدة كبرى في فهم الأخبار الصحيحة ، وتلك أكبر مشكلة في التاريخ الإسلامي وهي مشكلة تفسير الأخبار بعد ثبوت صحتها ، إن خطورة هذه المشكلة يقتضينا أن نفرد لها بحثا خاصا يتناول بالبحث المنهج الخاص لتفسير التاريخ الاسلامي لأن أكبر أخطاء المستشرقين والذين درسوا التاريخ الإسلامي ـ متابعين لهم ـ إنما تقع في هذا الباب .

---

(١) د . صبحي الصالح ، علوم الحديث ص ٢٧٨ وما بعدها .

القسم الثالث

● المنهج الإسلامي لتفسير التاريخ

● المنهج الإسلامي لتفسير التاريخ . . .

● التفسير الإسلامي والتفسير العلماني للتاريخ . .

. . . تكلمت آنفاً عن منهج خاص لدراسة التاريخ الإسلامي مستمد من مناهج أهل الحديث في تحقيق الخبر المروي عن الرسول عليه السلام . ويا حبذا لو اتجه القائمون على أمر تدريس التاريخ الإسلامي في جامعاتنا الإسلامية إلى تدريس مصطلح الحديث كمادة أساسية في أقسام التاريخ، ليكون ذلك مدخلاً لدراسة التاريخ الإسلامي على أساس من منهج هذا المصطلح . .

أما اليوم فسأتحدث عن المنهج المكمل لدراسة التاريخ وهو منهج التفسير، ذلك أن أكبر جناية وقعت على التاريخ الإسلامي إنما جاءت أساساً من هذا الباب . . ذلك أن الذين فسروا التاريخ الإسلامي قد فسروه من منطلق المنهج العلماني لتفسير التاريخ ، وهو منهج ليس قاصراً فقط عن تفسير التاريخ الإسلامي ، ولكنه قاصر عن تفسير أي تاريخ بسبب قصور أساسي فيه ، ولكي نوضح هذه الحقيقة لا بد لنا من تقديم فكرة موجزة عنه .

المنهج العلماني لتفسير التاريخ :-

وأحب أولاً أن أنبه إلى أن كلمة علماني لا تعني القائم على العلم وإنما تعني فهماً خاصاً ومحدوداً لمعنى العلم ، فكلمة علماني تعني التفكير المادي

الذي لا يؤمن إلا بالمحسوس ويستبعد المغيبات تماماً من مجال بحثه ، ولا يسلم أصلاً بوجودها ، ولقد ظهر المنهج المادي في الغرب كرد فعل للمنهج الروحي المستمد من المسيحية ، والذي يحط من قيمة المادة ويعلل الحوادث والأشياء بالمشيئة الإلّهيـة وحدها ، وينفي القول بالأسباب ، ولم يأت المنهج العلماني من فراغ ، وإنما جاء نتيجة الأخذ المباشر عن المسلمين ، ثم الارتداد إلى التراث المادي للاغريق وهو الارتداد الذي أفسد مناهج البحث .

المنهج العلماني ومبدأ التطور :

ويقوم المنهج العلماني على أساس من القول بمبدأ التطور الذي ظهر كبديل عن الخالق الذي تقول به المسيحية في تفسير الأشياء والأحداث[1] وهو ينسب خطأ إلى تشارلز دارون صاحب كتاب (أصل الأنواع) الذي صدر عام ١٨٥٩ م ، وكان سبباً في ذيوع شهرة داروين ، وشيوع نسبة مبدأ التطور إليه ، والحقيقة أن دارون وكتاباته لم يكونا السبب الوحيد أو حتى السبب الرئيسي لكل هذا الجدل الذي ثار حول المسائل الدينية والعلمية والاجتماعية ، فلم يكن هو أول من ذهب إلى القول بأن الانسان قد ظهر نتيجة لعملية تطور طويل وبطيء من حالة حيوانية أكثر بداءة وتأخراً ، فقد ظهر الحديث عن التطور في كتاب (كنت) « الأسس الميتافيزيقية للعلم الطبيعي» عام ١٧٨٦ ، كما ظهر في كلام (لابلاس) عن الفرض السديمي عام ١٧٩٦ ، وكذلك في آراء (هتون) عن أسس الجيولوجيا الحديثة ، وحين ظهر كتاب داروين عن « أصل الأنواع » كانت العلوم الفيزيائية قد اتخذت بالفعل اتجاهاً تطورياً في نظرتها إلى الأشياء . وهذا نفسه هو ما حدث

(١) مبدأ الخلق هو المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه التفكير عند جميع المؤمنين بالرسالات السماوية ، وقد تعرض هذا المبدأ للتحريف عند المسيحيين ولم يبق على أصله السليم إلا في الإسلام ومصادره الأساسية من الكتاب والسنة على النحو الذي سنعرض له فيما بعد .

بالنسبةللأشكالالحية على يد (ارازموس داروين) جد (تشارلز داروين) في كتابه (معبد الطبيعة) الذي صدر في عام ١٨٠٣ ، وعلــى يد (بيغون) و (لامارك) في أوائل القرن التاسع عشر أيضاً عن تحولات الأنواع . . ومن هذا يتضح أن (أصل الأنواع) ظهر في جو مشحون بالتفكير التطوري ، وكذلك بالتغيرات السياسية والاجتماعية التي كانت تهز أوربا بعنف في أوائل القرن التاسع عشر والتي كانت تتخذ في بعض الأحيان شكل (ثورات) تهدف الى هدم الأوضاع القديمة والوصول إلى نظم اجتماعية جديدة تقوم على أسس مختلفة . . .

ولقد ورث داروين ـ ضمن ما ورث ـ موقف التشكيك في كثير من مسلمات الدين المسيحي ومنها مبدأ الخلق ، وكان هذا المبدأ يتعرض للهجوم على يد المفكرين الملحدين الذين تأثروا بالفلسفة (الميكانيكية) الآلية ، التي أدت إليها آراء (نيوتن) فيما يتعلق بحركة العالم ، فقد أرجع (نيوتن) هذه الحركة إلى المادة نفسها ، واستبعد وجود قوة خارجية تنظم هذه الحركة وتوجهها ، وقد أدى تقدم الأبحاث العلمية في المجالات المختلفة مع الإلحاد في الله إلى المبالغة في امكانيات العلم البشري ، وإلى الإيمان بقدرة الإنسان المطلقة على التقدم والارتقاء غير المحدودين ، وعلى التخلص والتحرر من كل القيود التي تتخذ شكل نظم وكذلك على تحقيق السعادة الأبدية لنفسه على هذه الأرض[1] .

لتطوريون يعيدون تركيب التاريخ الإنساني على أساس أسطوري باسم لعلم :

وقد يعجب القارىء لقولي أساس أسطوري ، لظنه أن التفكير أسطوري يرتبط فقط بالشعوب القديمة التي يطلق عليها ـ خطأ ـ اليوم اسم

---

(١) عالم الفكر ، مجلد ٣ ، عدد ٤ مارس ١٩٧٣ ، النشوء والإرتقاء ص ٤ / ٥ .

الشعوب البدائية ، وذلك غير صحيح ذلك أن التفكير الأسطوري في تاريخ البشرية إنما يأتي كنتيجة حتمية لغيبة العلم الصحيح بالحقائق اليقينية التي يرتكز عليها تاريخ العالم ، وقد ضاع معظم هذه الحقائق بالنسيان من ذاكرة الأجيال، ولكن رحمة الله شاءت أن يبقى لها ذكر في القرآن الكريم بعد أن حرفت جميع الكتب السماوية أو ضاعت. ولما كان هذا العلم اليقيني الصحيح الذي بقي لنا في القرآن ، والذي بقيت آثار منه في التوراة أصبح مرفوضاً من العلماء الغربيين بسبب كفرهم بالتوراة وجهلهم أو رفضهم الإيمان بالقرآن باعتباره المصدر الوحيد للمعرفة الصحيحة في أصول الأشياء ، لذلك لم يجد الفكر العلماني أمامه إلا أن يفعل مثلما فعلت الشعوب القديمة التي نسيت ذكر الله وضاعت منها كتبه ، وهو أن يملأ الفجوات المجهولة في التاريخ بالخيال الأسطوري ؛ إن العجز عن التعليل ، أي معرفة العلاقة الصحيحة بين السبب والمسبب مع غيبة العلم الصحيح هو نفسه ما أوقع الفكر التجريبي الحديث في الأساطير ، فإذا كان من يسمونهم بالبدائيين المتوحشين بسبب عجزهم عن التعليل الناجم عن الافتقار إلى العلم الصحيح قد توهموا قوى خرافية ردوا إليها الأشياء وعللوها به ، فإن ذلك هو ما فعله التجريبيون أنفسهم سواء في مجال الظواهر المادية أو الحية أو التاريخية : لقد أدى العجز عن التعليل بدارون ولامارك مع غيبة الإيمان بالإله الخالق المدبر إلى اختراع علل وهمية أسطورية تتمثل في مبدأ التطور ذاته ، والذي يستند عند دارون إلى محض الصدفة ، وعند لامارك إلى وراثة الصفات المكتسبة، وعند بتلر إلى (المبدع الذي أبدع الكائنات وثوى في داخلها ثم أصبح جزءاً من تكوينها) وتلك نفسها هي عقيدة الهنود الوثنيين في وحدة الوجود ، إن العجز عن التعليل وهو آفة إنسانية حين يغيب العلم الصحيح، هو الذي يفسر لنا هذا الطوفان الهائل من التفسيرات الخاطئة التي قام بها التفكير الغربي للعالم ، ومنذ القدم والفكر الفلسفي في الغرب يتسرع دائماً - بسبب غيبة الهداية

الإلهية التي تواترت بها النبوات ـ واستناداً إلى بعض المعلومات الجزئية القاصرة عن ظواهر هذا العالم ، إلى بناء هياكل ضخمة وشاملة للمعرفة الأسطورية التي لا تستند إلى أساس علمي صحيح . . .

فعلى أساس من بعض المعلومات الجزئية المبتورة في مجالات المادة الجامدة والحية وفي مجال النفس والاجتماع نسج العقل الغربي باسم التجريب أساطيره الجديدة، وإذا كان الفكر الوثني الساذج معذوراً في لجوئه إلى الأسطورة ، فإن الفكر التجريبي الذي ألزم نفسه بقواعد منهجية لا عذر له ، ونحن من ناحيتنا لا يجب أن ننساق وراءه في تخبطه الأعمى ونحن نملك العلم الصحيح الذي يعصمنا من الوقوع في شباك الأساطير لو استعملناه الاستعمال العلمي الصحيح .

حركة التاريخ والعوامل المحركة لها عند التطوريين : ـ

في غمرة الفتنة بالنتائج المحدودة التي حققها علم الأحياء (البيولوجيا) انطلق الفلاسفة الإلحاديون في مجال الأحياء يبشرون بدينهم الجديد وهو حتمية التقدم الذي يقوم على أساس أن الحياة تتكون من البسيط إلى المركب إلى الأكثر تركيباً طبقاً لقانون حتمي ، وتلقفها عنهم الفلاسفة الملحدون في مجال الدراسات الاجتماعية فذهبوا إلى القول بأن الصفة الغالبة على سير الحضارة هي التقدم ، وأن التدهور ليس إلا حالة استثنائية عارضة ومؤقتة ، وأن الحياة تسير بالضرورة نحو تحقيق مزيد من التقدم والرقي ، فالنظم الاجتماعية والمجتمعات الإنسانية ذاتها تقدمت ، أو هي تتقدم بالضرورة من حالة التأخر والبدائية إلى التحضر والتمدين مارة أثناء ذلك بمراحل معينة يختلف عددها وخصائصها من عالم لآخر ، ولكنها تتفق كلها في أن المرحلة اللاحقة فيها تكون أعلى من السابقة وأكثر منها رقياً وتقدماً ، كما أنها تهيء الفرصة لقيام مرحلة أرقى منها هي ذاتها ، فكما أن الكائنات الحية

ارتقت وتقدمت بحيث وصل الأمر بها في النهاية إلى ظهور الإنسان الذي يمثل قمة التطور (البيولوجي) والذي هو في الوقت ذاته « يقود كل الخلائق الأخرى » باعتباره أعلاها وأسماها جميعاً ، كذلك تطور المجتمع من مراحل الجمع والالتقاط وما يماثلها إلى مرحلة الصناعة التي تمثل أرقى أشكال النشاط الاقتصادي وأكثرها تعقداً ، وربما كان الفيلسوف الاجتماعي البريطاني هربرت سبنسر هو أكثر من استخدم كلمة « تقدم » في كتاباته بهذا المعنى التطوري دون أن يضمنها في الوقت نفسه أي معان أخلاقية أو معيارية مثلما فعل غيره من الكتاب التطوريون في القرن الماضي . فقد كان سبنسر يرى ببساطة أن كل شيء يتقدم ويتطور في هذا الكون ، وأن هذا التقدم ينعكس في التحول من التجانس إلى التغاير (وذلك لأن التجانس يمثل الأشكال البسيطة ، بينما يمثل التغاير الأشكال المركبة بسبب ما يطرأ على بنائها من تعقيد) ، وهو تحول يطرأ على كل فروع ومجالات النشاط البشري بما في ذلك النظم الحكومية والاقتصادية بل وأيضاً الموسيقى والشعر واللغة وما إليها[1] ، وقد حاول العلماء أن يعيدوا تركيب المجتمعات الإنسانية وتصنيفها بقصد التعرف على تاريخ المجتمع الأوربي نفسه وتحديد المراحل التي مر بها حتى وصل إلى ما كان عليه في ذلك القرن،ومن أهم هؤلاء العلماء الذين فعلوا ذلك العالم الاقتصادي الألماني كارل بيشر ، والعالم الأمريكي لويس مورجان . أما بيشر فكان يذهب إلى أن الاقتصاد البشري مر بثلاث مراحل قبل أن يصل إلى المرحلة الصناعية في أوربا في القرن التاسع عشر . وفي أولى هذه المراحل الثلاث كانت حياة الانسان تعتمد إما على الجمع والالتقاط أو على قنص الحيوان أو صيد السمك بحسب ظروف كل مجتمع على حدة ، ثم انتقل الإنسان إلى مرحلة الرعي ، وأخيراً وصل إلى مرحلة الحياة المستقرة التي تعتمد على الزراعة . أما لويس مورجان فإنه يذكر لنا في كتابه عن

(١) د . زيدان عبد الباقي ـ التفكير الاجتماعي ص ٢٦٢ وما بعدها .

المجتمع القديم ، أن العالم مر بحقبتين كبيرتين هما حقبة التوحش وحقبة البربرية قبل أن يصل إلى الحضارة الأوربية الحديثة . ثم يقسم كلا من هاتين الحقبتين بعد ذلك إلى ثلاث مراحل أخرى دنيا ووسطى وعليا . وبذلك يكون المجتمع قد مرّ بحسب تقسيمه في المراحل التالية : أ ـ مرحلة التوحش الدنيا وتبدأ من طفولة البشرية . ب ـ مرحلة التوحش الوسطى ، وتبدأ باستخدام النار ، وكان الاقتصاد يعتمد فيها في أساسه على صيد السمك . جـ ـ مرحلة التوحش العليا وتبدأ منذ اخترع الإنسان القوس والسهم وبذلك كانت الحياة الاقتصادية تقوم في الأغلب على القنص .

د ـ مرحلة البربرية الوسطى التي تتميز بحفظ واستئناس الحيوانات وزراعة الذرة والاعتماد على الري . هـ ـ مرحلة البربرية العليا وتبدأ باكتشاف طريقة سبك الحديد وبالتالي استخدام الأدوات والآلات الحديدية . و ـ وأخيراً وصلت الإنسانية إلى المرحلة السابقة والأخيرة وهي مرحلة الحضارة الصحيحة التي تمتاز باكتشاف حروف الهجاء والكتابة ، وهي تمتد حتى عصرنا الحالي (١)

نقد مبدأ حتمية التقدم على يد المسيحيين من العلماء :-

لم يعن اكتساح المفهوم الإلحادي للتطور القائم على مبدأ التقدم الحتمي طبقاً لقانون ثابت للفكر الغربي ارتداد جميع المسيحيين عن مسيحيتهم ، والذي بقي فيها من مبادىء الإيمان الصحيح الإيمان بالخالق وبأن العالم مخلوق ، لذا واجهت فكرة التطور بهذا المعنى الإلحادي الذي ذكرناه كثيراً من الانتقادات العنيفة التي وجهها إليها عدد من العلماء ورجال الدين في الغرب فقد رفض هؤلاء أن يتصوروا المجتمع البشري يسير في ذلك الخط الذي رسمه أصحاب مدرسة التقدم الحتمي ، ورأوا على العكس من ذلك أن

---

(١) أحمد أبو زيد ـ التطورية الاجتماعية ـ عالم الفكر ـ مجلد ٣ ـ عدد ٤ ص ١٠٤٩ / ١٠٥٠ .

الإنسان خلق في الأصل على درجة عالية نسبياً من الرقي الثقافي ، ولكن هذه الثقافة الأولى الراقية تعرضت لبعض عوامل مضادة ، ولبعض الظروف غير المؤاتية التي دفعت بها إلى هوة التدهور والتأخر والانحلال ، ويستمد هذا الرأي أصوله في الواقع من نفس تعاليم « الدين المسيحي » ونص « العهد القديم » فالصورة التي لدينا عن آدم عليه السلام ،أبي البشر وأول رجل ظهر على الأرض، هي أنه خلق في الجنة أولاً ، مما يعني أن الإنسان الأول كان يمارس الزراعة (تنبه إلى أن ذلك يتمشى مع قول التوراة عندهم أن جنة عدن التي خلق فيها آدم كانت على الأرض وليس في نص القرآن الكريم كما سنذكر ذلك ما يؤيد هذا القول) ، ولما كانت الزراعة باعتراف أصحاب المدرسة التطورية التقدمية أنفسهم وسيلة للعيش أكثر رقياً وتقدماً من كثير من الحرف والمهن ، (إذ سبقتها مرحلة الجمع والالتقاط ومرحلة الصيد والقنص ومرحلة الرعي) فإنه يتعين على أصحاب المدرسة التقدمية إذن أن يقبلوا أحد أمرين : إما أن يعترفوا بأن ثقافة الإنسان الأول كانت راقية ثم تدهورت ، وإما أن يبحثوا عن إنسان آخر وجد قبل آدم عليه السلام ، وكان أسبق عليه ، وكان يحيا حياة أكثر تأخراً من حياته ، أي أن يفترضوا وجود مرحلة وحياة وبشر قبل آدم عليه السلام ، فتاريخ الثقافة بدأ - في رأي هؤلاء المعارضين - بظهور جنس بشري متحضر على سطح الأرض ، ثم لم تلبث هذه الثقافة الأولى أن اتجهت وجهتين مختلفتين . إما إلى نكوص وتدهور وانحطاط ترتب عليها ظهور المجتمعات المتوحشة ، وإما إلى تقدم وارتقاء ورفعة أدت إلى ظهور الشعوب المتحضرة الراقية . وقد ظهر هذا الاتجاه المعارض بشكل واضح جلي عند بعض رجال الدين واللاهوت على الخصوص في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ومن أكبر مشايعي هذه النظرة الأسقف (هويتلي) أسقف (كانتربري) في ذلك الحين ، والذي كتب كتاباً بعنوان « مقال عن أصل الحضارة » كان له دوي كبير في حينه .

وبنى (هويتلي) كتابه على حجة استقاها من (نيبوهر) أحد أعداء الفكرة التقدمية (الالحادية) وكان (نيبوهر) ينكر بشدة امكان نهضة الإنسان الأول وتقدمه وارتقائه من مرحلة متوحشة إلى المراحل الأكثر تحضراً عن طريق التطور التلقائي الذاتي ودون تدخل أية عناصر أو عوامل أخرى خارجية ، وكان يتحدى العلماء التقدميين في أن يأتوا بمثال واحد لشعب بدائي واحد أمكنه أن يرقى إلى مرحلة التحضر من تلقاء نفسه ، إنما البدائيون عنده ، وعند أتباع نظرية تدهور الثقافة الأولى سلالة متدهورة عن شعب متحضر الأصل (١) .

العوامل المحركة للتاريخ عند التطوريين الإلحاديين :ـ

وعلى أساس من مبدأ التقدم الحتمي ظهرت مدارس متعددة تحاول كل منها أن تفسر حركة التاريخ بعوامل مادية وعلل اجتماعية ونفسية خالصة ، فظهرت المدرسة الجغرافية بزعامة (برون وميشليه) تفسر حركة التاريخ بظواهر جغرافية ، وظهرت المدرسة النفسية بزعامة تارد وغوستاف لوبون ثم فرويد، تفسر التاريخ بعلل نفسية ، وظهرت المدرسة (الاثنولوجية) بزعامة تين وميشليه تفسر التاريخ عن طريق الجنس ، أو العرق ، ثم ظهرت المدرسة المادية التاريخية بزعامة كارل ماركس تفسر التاريخ بالعلل الاقتصادية .

كما ظهرت المدرسة الفرنسية الاجتماعية التي تفسر التاريخ بالعقل الجمعي . . إلى آخر هذه التفسيرات التي اختلط فيها القليل جداً من الحق بالكثير جداً من الأساطير . . .

مصير التفسير بالعامل الواحد في الدراسات النقدية الغربية :ـ

لا يتسع هذا المجال المحدود لنقد هذه التفسيرات التي تفسر التاريخ

---

(١) أحمد أبو زيد ـ التطورية الاجتماعية . ص ١٠٥٠ وما بعدها بتصرف .

بعامل واحد ويُناقض بعضها بعضها ، وإنما أشير فقط إلى ما انتهى إليه أمرها عند النقاد الغربيين . . لقد انتهى الأمر بنظريات السلالة والبيئة مثلاً في التفكير الغربي إلى أن اعتبرت ضرباً من التفسير (الميتافيزيقي) الفلسفي ، هذا في الوقت الذي ما زلنا نستعملها نحن في بعض دراساتنا كحقائق مسلمة كما رأينا في تفسير التاريخ الإسلامي في عصر الأمويين بعامل الصراع القبلي وهو يرتكز على التفسير العرقي أو السلالي ، وكما فسر أحمد أمين متابعاً رينان وجوتييه تاريخ العرب وفكرهم بهذه النظرية ، وكما فسر د . عز الدين اسماعيل الشعر العربي القديم في ضوء نظرية البيئة. يقول (كروتشه) وهو من أبرز النقاد التاريخيين في الغرب « إنه عندما كان تين يهتدي في بحثه عن العلل ، إلى علة فإنه كان يدعوها مرة (بالسلالة) ومرة أخرى (بالقرن) ، وقد اعتاد عندما يحقق ذلك أن يعلن رضاءه ، وكأنه من غير المستطاع القيام بأي تحليل بعد ذلك ، أو كأن هذا التحليل لم يعد ضرورياً . . هناك ينتهي البحث ، فقد أمكن الوصول إلى عالم أزلي أو إلى صفة مشتركة عن أفعال هذا القرن وروحه . . إن قدرة الخيال عند تين قد رأت في هذه الأسماء ما ظنته شيئاً أصيلاً وفائقاً ، ولكن العقل النقدي لم ير في ذلك أي معنى ، لأن الفكر النقدي يطلب من الباحث ذكر الأسباب الخاصة بأصول الوقائع ، أو مجموعات الوقائع التي تسمى (قرن) أو (سلالة) وعندما يفعل العقل النقدي ذلك ، فإنه يبين بجلاء أن مثل هذه الكلمات لا يمكن أن تكون كلية أو دائمة ، فبقدر ما أعرف ليس هناك وقائع (كلية) أو (دائمة) فلا يمكن أن يكون (الألماني) أو (الشمالي) مثل هذه الوقائع ، كما أنني لا أستطيع أن أصف الموميات التي تبقى عدة ألوف من السنوات ، وإن كانت لا تبقى إلى الأبد ، والتي تتغير ببطء ، وإن كانت تتغير مع ذلك بأنها وقائع »[1] .

---

(١) ارنست كاسيرر ، ترجمه أحمد حمدي ، في المعرفة التاريخية ص٥٠/ ٥١ .

ويقول أرنولد توينبي « السلالة والبيئة هما المفتاحان الرئيسيان المتعارضان اللذان اقترحهما المؤرخون الغربيون في القرن التاسع عشر ممن يميلون إلى اتباع الطريقة العلمية في التاريخ لحل مشكلة التفاوت الثقافي بين مختلف المجتمعات البشرية القائمة ، ولكن أحدهما لم يفلح عند التجربة في فتح الأبواب الموصدة، فإذا أخذنا أولاً بالنظرية السلالية فما هو الدليل على أن ثمة ارتباطاً بين الفروق في الخصائص الجسمية القائمة بين مختلف أعضاء الجنس البشري وبين الفروق الموجودة في المستوى الثقافي الذي هو مبحث التاريخ ، وإذا سلمنا جدلاً بوجود هذا الارتباط فكيف نفسر وجود أعضاء يكادون ينتمون إلى جميع السلالات بين مؤسسي حضارة أو أكثر من الحضارات ؟ إن الجنس الأسود وحده هو الذي لم يسهم حتى الآن في الحضارة بصورة محسوسة ، ولكن إذا راعينا قصر المدة التي سارت فيها تجربة الحضارة حتى وقتنا هذا لم يكن ذلك دليلاً قوياً على عجز هذا الجنس، فقد يكون مرد هذا العجز إلى أنه لم تتح له الفرصة أو الحافز لهذا الاسهام .

أما فيما يتعلق بالبيئة فإن هناك تشابهاً واضحاً بالطبع بين الظروف السائدة في الوادي الأسفل لنهر النيل والسائدة في الوادي الأسفل لدجلة والفرات ، وهما الواديان اللذان كانا مهداً للحضارتين المصرية والسومرية على التوالي . ولكن إذا صح أن هذه الظروف الطبيعية هي السبب الحقيقي في ظهورهما فلماذا لم تظهر حضارة مماثلة لهما في كل من وادي الأردن ، وريوجراند وكلاهما له ظروف طبيعية مماثلة لظروف هذين الواديين الأوليين ، ولماذا لم تنشأ في مرتفعات كينيا حضارة مماثلة للحضارة التي نشأت في هضبة الأنديز الإستوائية ؟ »[1] .

ليس هدفنا هنا تعقب كل أنواع التفسير القائم على مبدأ التقدم

---

(١) الحضارة في الميزان ص ١٨ / ١٩ .

الحتمي الإلحادي ولا تعقب التفاسير التي قامت على أسس مخالفة تماماً كرد فعل لتطرف هذا التفسير مثل تفسير التاريخ على أساس نظرية التحدي عند مؤرخ مسيحي متعصب للمسيحية وهو (توينبي) ، ومثل نظرية الدورات الحضارية التي قال بها مؤرخ الماني ملحد لكنه متشائم كفر بأسطورة التقدم بعد أن رأى انهيار الحضارة الغربية بعينيه على يد الأوربيين أنفسهم في الحرب العالمية الكونية الأولى وهو (اشبنجلر) وإنما نركز فقط على نظرية التقدم وما انتهت إليه التفسيرات الخاصة بها في تاريخ الفكر الغربي ، وإن كنت أعتقد أن هذا الموضوع يحتاج إلى المزيد ؛ ونكتفي بهذه الأمثلة لنعرض للتفسير الإسلامي للتاريخ .

التفسير الإسلامي للتاريخ :-

عندما نمعن النظر في الكتاب والسنة فإنا سوف نعثر على منهج متكامل لتفسير التاريخ يقوم على أساس من الحقائق اليقينية التي جاء بها الوحي الصادق ، فنحن هنا لسنا أمام فروض وظنون وأوهام تستخدم بعض المعلومات الإنسانية المبتورة عن الظواهر المادية والحية والإنسانية لنقيم على رمال الأوهام المتحركة صرحاً شامخاً لتفسير التاريخ .

ذلك أن القرآن الكريم الذي جاء رحمة للناس قد حفظ لنا بالخبر الصادق عن خالق الكون والإنسان الحقائق الأساسية التي تتعلق بخلق هذا الكون والإنسان ، وهذه الحقائق أساسية جداً في حفظ التفكير الإنساني من السقوط في حبائل الفكر الوثني الأسطوري الإلحادي سواء حدث ذلك باسم الفلسفة كما هو الشأن قديماً أو باسم التجريب كما هو الشأن حديثاً ، وهذه الحقائق التي تقوم على علم صحيح لا ينطق عن الهوى تُمثّل قاعدة أساسية لمنهج التفكير العلمي أو مبادىء أساسية ينطلق منها البحث العلمي ، فبدلاً من المقولة الوثنية الالحادية التي قام عليها العلم الحديث والتي تذهب إلى القول

بقدم المادة واستقلالها عن التدبير الخارجي بقوانينها الذاتية،وهي المقولة التي انطلق منها الفكر التطوري الإلحادي وكانت سبباً في تخبطه،يقدم الإسلام حقيقة يقينيّة تتمثل في القول بأن الله تعالى هو خالق هذا العالم وهو الذي يدبره وهو الذي وضع في الأشياء نظامها ، وهو الذي يرعاها أبداً بتدبيره وعنايته ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾ الزمر : ٦٢ ؛ فالله هو (الأول) لم يكن قبله شيء وهو يخلق بمشيئته من العدم المحض ، وذلك هو الأساس الذي قام عليه منهج البحث العلمي عند المسلمين، فالعلوم جميعها قد انطلقت عند المسلمين سواء في مجال النظر العقلي أو التجريبي من عقائد الإسلام ، ويمكن تلخيص أصول النظر الإسلامية عند المسلمين في المبادىء القرآنية التالية :

١ ـ هذا العالم مخلوق خلقه الله تعالى من العدم المحض ، أي من غير مادة سابقة لأن الله تعالى هو الأول فلا شيء قبله ولا شيء كان معه حتى خلق الخلق، قال تعالى : ﴿هو الأول والآخر﴾ سورة الحديد: ٣.

٢ ـ هذا العالم المخلوق يسير وفق نظام (سنن) وضعها الله تعالى ، على أساس من التقدير المحسوب بحساب دقيق، قال تعالى : ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ سورة القمر : ٤٩ .

٣ ـ هذا النظام الدقيق لا يستقل وحده بالعمل في الأشياء وإنما يعمل بتدبير مباشر ومستمر من الله تعالى لا ينقطع لحظة واحدة قال تعالى: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ سورة فاطر : ٤١

٤ ـ هذا النظام الدقيق القائم بالتدبير المباشر والمستمر من الله تعالى ثابت مستقر مطرد قال تعالى ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ . سورة فاطر : ٤٣ .

٥ ـ هذا النظام المدبر بأمر الله والثابت وفق سنن الله قائم إلا أن يشاء الله غير ذلك،أي أن ثباته لا يأتي من حتمية تفرضها طبائع الأشياء ، وإنما تأتي من مشيئة الله التي اقتضت ذلك والتي تملك تغييره واستبداله متى شاءت وكيف شاءت ، قال تعالى ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز﴾ سورة فاطر : ١٦ وقال ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ سورة الرحمن : ٢٤

﴿إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره﴾ سورة الشورى : ٣٣

٦ ـ هذا النظام الثابت يمضي لتحقيق غاية قدرها الله تعالى، قال ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناها إلا بالحق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ سورة الأنبياء : ١٦

٧ ـ هذا العالم المخلوق بنظامه كله سوف ينتهي عند نهاية قدر أمدها الله تعالى وقال ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ سورة الرحمن : ٢٧

٨ ـ هذا العالم المحكوم عليه بالفناء سوف يخلق الله بعده عالما آخر له نظام آخر . قال تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ سورة ابراهيم : ٤٨.

في إطار هذه المبادىء العامة التي تقرر وجود النظام ولكنها لا تجعله حاكما متصرفا بأمره في الأشياء ، والتي تقرر شمول سلطان القدرة الإلهية على العالم ، والتي تقرر الحكمة والغاية في خلق الأشياء والأحياء ، بين لنا القرآن الكريم والسنة حركة التاريخ الإنساني والعوامل الفاعلة فيها .

حركة التاريخ الانساني بداياتها واتجاهاتها في القرآن الكريم :

يرسم القرآن الكريم لحركة الاجتماع الإنساني صورة معاكسة للحركة التي رسمها الخيال الاسطوري باسم العلم ، والتي استقرت مع الأسف الآن كأساس تفسر به حركة التاريخ ، فالإنسان قد انتقل من البدائية إلى

التحضر ، هذه المقولة لا تجد الآن من ينكرها من دارسي التاريخ عندنا بل العكس سوف نجد الانكار إذا قلت لهم بعكس ذلك. مع أن هذا العكس هو ما قرره القرآن الكريم بنصوص صريحة قطعية الدلالة ، وهذه النصوص تقول بأن الله تعالى قد خلق آدم عليه السلام خلقا مستقلا ، ولم يقل إنه تطور عن كائنات أخرى قال تعالى :﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ ، وبذلك يكون خلق الإنسان الأول قائما على أصلين : أصل ينتمي إلى هذا العالم المشاهد المحسوس (طين) وبمقتضى هذا الأصل يخضع الإنسان لجميع السنن الإلهية العاملة في الأشياء والأحياء ، ويمكن دراسته من وجهة نظر علم الأحياء باعتباره كائنا حيا يشابه الكائنات الحية في خصائصها ، وفي حاجتها إلى العالم المادي والحيوي المحيط بها. وهذه المشابهة هي التي أضلت العلماء الملحدين ورتبوا عليها مقولاتهم الباطلة واعتبروا الانسان مجرد حيوان خاضع لميكانيكية العوامل وجبرية الظروف ، وقد أدى تجاهل الجبريين الماديين على اختلاف مدارسهم لعنصر الحرية الذي تميز به الإنسان والذي لا يمكن تفسير نشاطه بالقوانين الجبرية وحدها إلى رد فعل عنيف في الفكر الغربي نفسه تمثل في المذاهب الوجودية التي ترفض التفسير الجبري للسلوك الإنساني ، وترى أن الإنسان يملك إزاء ظروفه حرية خاصة لا يمكن تفسيرها بالقوانين أو الضرورات التي تحكم المادة ، وقد انقسمت الوجودية في الفكر الغربي إلى شعبتين : الشعبة الإيمانية التي تزعم مدرستها قسيس الماني هو كيرجارد ، والشعبة الالحادية التي تزعم شعبها الفرنسي الملحد سارتر . هذه الحرية التي أنكرها الماديون ، واعترف بها الوجوديون لا يفسرها إلا هذا الروح الذي يملك حرية نسبية لكنها يقينية في مواجهة نظام الضرورة الذي تسير عليه الأشياء وهذه الروح تنتمي إلى عالم الغيب الذي اختص الله بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه قال تعالى ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي

وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[1] .

ويقرر لنا القرآن أن الله بعد أن خلق الإنسان علمه العلم بالأشياء قال تعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾[2] كما علمه الكلام ﴿قال يآدم أنبئهم باسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم﴾[2] وذلك صريح في أن آدم تكلم لغة مبينة مفهومة ولم يتكلم أصواتا أو إشارات. وفي عبارات صريحة يروي القرآن عن آدم وزوجه نص كلام مبين مفهوم بلغة مبينة قال تعالى رواية عن آدم وزوجه ﴿قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[3] ، قالا ذلك بعد أن أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها ، ثم ندما فتاب الله عليهما ثم أنزلهما إلى الأرض وبدأت بهما مسيرة الاجتماع الإنساني. وكان آدم منذ الخلق الأول تام الخلق والعقل عالما موحدا لله تعالى عارفا ربه ، وهذه هي مؤهلات اصطفائه على بقية الخلق وبهذه المؤهلات اصطفى من ذريته قال تعالى ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين﴾[4] ، وقد نبه القرآن إلى أنه تعالى قد خلق الإنسان منذ النشأة الأولى مزودا بأجهزة كاملة الاستعداد للتعلم والإدراك والتلقي ، ومزودا بأجهزة كاملة للعمل والحركة خلافا لما يقوله التطوريون. قال تعالى﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[5] أي خلقناه تاما سويا مزودا بكل ما يحتاج إليه في حياته العملية ، معدا إعدادا كاملا للحياة على الأرض والعمل فيها ، والإستفادة من خيراتها ، وقد نبه القرآن إلى أدوات الإدراك وإلى تمامها وكمالها﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[6] كما نبه إلى أن هذه الأجهزة ذات كفاءة عالية في أداء عملها ، وأن أي قصور فيها لا يرجع إلى عجزها في أصل الخلقة ، وإنما

---

(١) الإسراء : ٨٥ .
(٢) البقرة : ٣٣
(٣) الأعراف : ٢٣ .
(٤) آل عمران : ٣٣ .
(٥) التين : ٤
(٦) النحل : ٧٨ .

يرجع إلى سوء استخدامها ، ولذا حمّل الله الإنسان مسئولية صيانة هذه الأجهزة والمحافظة على حسن ادائها ، وعد سوء الاستعمال ذنبا يعاقب الإنسان عليه، قال تعالى﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾[1] .

كما نبه إلى أن الجهل عموما والجهل بالله خصوصا إنما يكون بسبب عدم استعمال هذه الأجهزة بالصورة التي رتب الله عليها عمل هذه الأجهزة، وسمى سوء الاستعمال المؤدي إلى التعطيل (طبعا) أي ختما أو تعطيلاً قال تعالى : ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم . .﴾[2] أي أن الله تعالى قد جعل من خصائص هذه الأجهزة أن تتعطل عن العمل ، أو تنحرف من أداء وظيفتها الأساسية إذا أسيء استخدامها ، كما تتعطل الأجهزة المادية أو تنحرف عن أداء وظيفتها إذا أسيء استعمالها ، وأهملت صيانتها ، لذلك ندد القرآن تنديدا شديدا بأولئك الذين يسيئون استخدام هذه الأجهزة ، ولا يستعملونها على الوجه السليم ، وجعلهم في مرتبة أحط من مرتبة الحيوان قال تعالى ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾[3] .

فالتوحيد إذن سابق في تاريخ البشرية والشرك تال ، وكذلك العلم بالمعنى الدقيق لكلمة علم ، فلم يكن آدم همجياً ولا بدائياً ولا متوحشاً وإنما كان إنساناً عاقلاً عالماً مسلماً وكان نبيا،وليس من الضروري أن يكون علم آدم أو علم الأنبياء بظواهر الأشياء من نوع علم علماء الكيمياء والأحياء والذرات ، لأن هذا النوع من العلم لا يترتب عليه تفاضل بين الناس ، وهو

---

(١) الإسراء : ٣٦ .

(٢) النحل : ١٠٨ .

(٣) الأعراف : ١٧٩

علم لا يصلح إلا إذا ربط بالعلم الأعلى وهو العلم بالله ، وهذا هو العلم الذي تقدم به الأنبياء على غيرهم والذي لا تصح العلوم الأخرى ولا تحقق غاياتها إلا به .

وعلى هذا تكون البداية الأولى للإجتماع الإنساني قد بدأت من العلم ومن التوحيد، وكانت أول جماعة تكونت في التاريخ من ذرية آدم أمة مسلمة ملتزمة بعهد الله وظلت كذلك حتى طال عليها الأمد فنسيت وضعفت وغيرت وبدلت وتفرقت بها السبل عن سبيل الله ، فتسلطت عليها الأشياء وتسلطت عليها الظروف فسقطت في الوثنية ونسيت العلم الصحيح فسقطت في حالة من الهمجية أو الوحشية، قال تعالى ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا﴾[1] أي أمة مجتمعة على دين واحد هو الإسلام ، وهذا الخبر الصادق عن أصل الاجتماع الإنساني هو عكس ما يذهب إليه علم الاجتماع الحديث في تفسيره للتاريخ والذي يقوم على الأساس المادي الالحادي الذي أشرنا اليه ، والذي يقول بأن أصل الإجتماع كان هو البدائية والهمجية والوثنية إستنادا إلى المقولة الباطلة التي تنكر خلق آدم ، والتي تزعم دون أثارة من علم صحيح أن أصل البشر قد تطور عن القرود من مواقع مختلفة من العالم ، وهوَ الأمر الذي ترتب عليه كما يزعمون تعدد الأصول الإنسانية واختلافها من ناحية ، كما ترتب عليه ابتداء الإنسان من الحالة الحيوانية الهمجية الوحشية ثم التدرج إلى الحياة العاقلة المتحضرة وما صاحب ذلك التعدد من تدرج أو تطور في عقل الإنسان وفكره ترتب عليه تدرج وتطور مماثل في فكرة الدين التي اخترعها عقل الإنسان والتي تدرجت من الفيتشية (نسبة الروح) إلى كل كائن حي أو جامد ، إلى تعدد الآلهة ، إلى التوحيد .

---

(١) يونس : ١٩ .

فالهمجية والوثنية في تفسير القرآن حالات تعرض للبشر نتيجة للبعد عن مصادر العلم الصحيحة بأصل الإنسان وحقائق العالم وسلطان الله القائم على الأشياء والناس ، لقد سخر الله الأشياء للإنسان ، وقدرة الإنسان على هذا التسخير لا تأتي إلا من معرفته أن هذه الأشياء لا تملك لنفسها سلطانا على غيرها أو على نفسها وأن مشيئة الله هي الحاكمة، فإذا جهل ذلك نسب السلطان إلى الأشياء أو إلى الناس فعبد الأشياء أو الناس وهذا هو منشأ الوثنية ومنشأ الجهل الذي يفقد به الانسان قدرته على التصرف في الأشياء ، ولما كان الله يعلم بهذه العلل في الإنسان ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾(١) ،﴿ فنسي ولم نجد له عزماً ﴾(٢) اقتضت مشيئته ورحمته أن يعين الإنسان على نفسه بالرسالات والنبوات والكتب ، لكي يستمر التذكير بالله وبالعهد على طاعته وبأصل الإنسان وحقائق الأشياء. فالقرآن يخبرنا أن رسالات الأنبياء تنصب على الدعوة المستمرة إلى التذكير بعهد الله وضرورة قيام الاجتماع على أساسه ، كلما جهل الناس وتفرقوا وتخطفتهم الولاءات الباطلة التي جرفتهم بعيداً عن عبادة الله الواحد ، والأمة المسلمة الواحدة التي هي أصل الاجتماع، قال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ سورة البقرة / ٢١٣.

ويؤكد على هذه الحقيقة في مواضع متعددة فيقول ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا﴾ سورة يونس / ١٩ ، ويقول ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم.

---

(١) النساء : ٢٨

(٢) طه : ١١٥ .

فرحون ﴾ المؤمنون / ٥٢ ، ٥٣ . .

هذه هي حركة التاريخ الإنساني الصحيحة كما يرسم لنا معالمها كتاب الله ، وحين نفسر التاريخ في ضوئها سوف تتضح لنا حقائق كثيرة طمست معالمها التفسيرات العلمانية التي شوهت التاريخ : فالحركة كما يصورها القرآن هي حركة اجتماع وتشتت، أساسها الأمة المسلمة التي تشعبت عنها الوثنيات والمعتقدات الباطلة بأشكالها المختلفة ، وحركة هداية وضلال تتمثل في الاستعمال الصحيح أو السيء للامكانيات المتاحة للإنسان في نفسه والأشياء من حوله ، وهي حركة يرشدها الله بالنبوات وبالوحي كلما انحرفت عن مسيرتها الصحيحة بالبعد عن مصادر العلم والهداية الصحيحة والوقوع في أسر الضرورات . .

وإذن يكون القول بالتقدم الحتمي من البسيط إلى المركب سواء في صورة خط ثابت انتهى إلى الحاضر أو مضى على شكل دورات هو مجرد تحكم مُتعسف في تفسير التاريخ أو كما يقول (كولنجوود) في كتابه فكرة التاريخ « وإذن تكون العقيدة القديمة (يشير الى تفكير القرن التاسع عشر) في وجود خيط تقدمي واحد انتهى بالبشرية إلى هذا الحاضر ، وكذلك العقيدة الحديثة بوجود دورات حضارية (يقصد فكرة اشبنجلر عن الدورات الحضارية) ، أي تقدماً متعدد النواحي انتهى بالبشرية إلى عصور عظيمة ثم إلى الانهيار، إن هي إلا مجرد صور أضفاها جهل المؤرخ على سجل الماضي »[1] . .

الأطوار والتطور : -

ولا أستطيع أن أختم البحث في هذه المسألة قبل أن أشير إلى لبس سيء حدث في الفكر الحديث بين كلمتي (أطوار وتطور) ، كان من نتيجته

(١) فكرة التاريخ ص ٥٥٠

أن تساهل بعض المفكرين المسلمين في استعمال كلمة (تطور) بصورة أدت إلى شيوع هذا الإستعمال على ألسنة الناس ، وأنا لا أشك لحظة في سلامة اعتقاد المسلمين الذين استعملوا هذه الكلمة ، فالمفكرون المسلمون لا يقصدون قط المعنى الإلحادي الـذي يعني التقدم من البسيط الى المركب بمقتضى قانون ذاتي لا تتدخل فيه إرادة خارجية ، فحاشا لله أن يعتقد مسلم في مثل هذا الكفر ، إنما حسبوا أن التطور هو الأطوار وذلك خطأ ، وفسروا الأطوار بالتدرج الذي يعني اطراد التقدم بغير المعنى الإلحادي وذلك خطأ ، وأساس هذا اللبس هو الخطأ الذي وقع في ترجمة كلمة (Evolution) إلى العربية بسبب جهل المترجم بمصطلح العرب ، والذي ما جهل الناس واختلفوا إلا بسبب جهلهم بهذا المصطلح كما نبه إلى ذلك الإمام الشافعي .

ذلك أن الطور ، في العربية هو الحالة والتارة ، والأطوار هي الحالة بعد الحالة دون أن يفيـد ذلك معنى التقدم إلا بقرائن دالة ، فقـد يكون الانتقال من الحالة الأدنى إلى الأعلى وقد يكون العكس وقد يكون الانتقال بمعنى المغايرة دون أن يفيد الصعود أو النزول . جاء في اللسان : الطور التارة تقول طورا بعد طور ،أي تارة بعد تارة قال الشاعر عن الحمى تصيب المريض : تراجعه طورا وطورا تطلق ، وجمع طور : أطوار ، والناس أطوار أي أخلاق على حالات شتى قال تعالى ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ معناه . ضروبا وحالات مختلفة ، قال ثعلب : أطوارا أي خلقاً مختلفة ، كل واحدة على حدة . وقال الفراء : خلقكم أطوارا ، أي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ، وقال الشاعر : والمرء يُخلق طورا بعد أطوار ، فالأطوار تفيد معنى الاختلاف والتغاير أكثر مما تفيد معنى التدرج ، ولذلك فهي تفيد الانتقال من حالات القوة إلى الضعف كما تفيد الانتقال من حالات الضعف إلى القوة قال تعالى : ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾ فالتغاير هنا والاختلاف هو المقصود في

الأطوار . أما التدرج أو اطراد التقدم فتدل عليه ألفاظ أخرى مثل تدرج ، اطراد ، تحسين ، ترقي . . ، واطراد التقدم على غير المعنى الإلحادي ملحوظ في كثير من المجالات وهو غير منكر ، فهناك اطراد في تقدم المعرفة البشرية في مجال الظواهر ترتب عليه اطراد في التقدم في مجال الإختراع والصناعة ، وهناك تدرج ملحوظ في التشريع ، وأحوال العمران ، ومن الأفضل أن نستعمل في وصف ذلك ألفاظا أكثر انضباطا وأبعد عن الشبهة من ذلك المصطلح الفاسد لغة ودبنا وهو (التطور) والذي تلبس بمفهوم إلحادي بغيض لا تستطيع أنهار النوايا الحسنة في الدنيا أن تزيل آثاره .

المنهج الاسلامي لتفسير العوامل التي تحرك التاريخ وتؤثر فيه في ضوء التوجيه القرآني والنبوي . .

تكلمت آنفا عن التفسير العلماني لحركة التاريخ والعوامل المحركة له عندهم ، كما تحدثت عن التفسير الإسلامي لحركة التاريخ وأتحدث الآن عن العوامل التي تحرك التاريخ وتؤثر فيه في ضوء التوجيه القرآني والنبوي .

وحين نتفحص بإمعان كتاب الله وسنة رسوله سوف يدهشنا أن نرى صورة كاملة لمجموعة من العوامل المتشابكة والمتداخلة التي تحرك التاريخ وتؤثر فيه . ولقد تنبه بعض الباحثين إلى طرف من هذه الحقيقة فكتب د. راشد البراوي كتاباً سماه التفسير القرآني للتاريخ إلا أنه ركز فقط على العامل الاقتصادي وذلك بسبب تكوينه الماركسي فجاء تفسيره ناقصاً مشوهاً مبتورا ، بل ومضللا ، وذلك شأن الماركسيين في تفسير التاريخ يقتنصون بعض الحقائق الصحيحة ثم يقفزون منها لتركيب بناء تاريخي كامل يتجاهل جميع العوامل الأساسية الأخرى ويسقطها من الحساب ، كذلك كتب الدكتور عماد الدين خليل كتابه : التفسير الاسلامي للتاريخ ، ويعد بداية مشجعة للسير في هذا الاتجاه ، وان كان يعاب عليه أنه أهمل السنة النبوية مع أنها مصدر هام للتفسير لأن السنة كما هو معروف تأتي مفسرة للقرآن كما أنها تعد المصدر الثاني لحقائق الاسلام وشرائعه وفيها كثير جدا من الإشارات والتوجيهات التي تصلح أساسا للتفسير التاريخي ، كما أنها أحاطت بدقائق العوامل المختلفة التي تؤثر في حركة التاريخ . ولكن محاولة د. عماد تعد

بداية طيبة وإن لم تكن كاملة ونرجو لها ما بعدها . ولا بد لنا أن نعترف بأنه إذا كان التطوريون قد تطرفوا في انكار دور الإله الخالق المدبر في إنشاء العالم والحياة والبشر والجماعات وفي توجيهها بعنايته وحكمته ورحمته، وأنكزوا دور الوحي والنبوات وسائر العوامل المغيبة ، كما تطرفوا حتى في اعتبار العوامل المادية وتضاربوا في اعتبارها ، فإن بعضا من المفكرين المسلمين في الحاضر أيضا قد أنكروا أو على الأقل قللوا من أثر العوامل النفسية والبيئية والاجتماعية كرد فعل للمنهج المادي ، مع أن هذه العوامل التي نظر إليها الماديون من وجهة نظر إلحادية إنما هي في الحقيقة سنن الله تعالى في الكون والحياة والناس ، وهي سنن لم يصنعها التجريبيون ، وإنما كشفوا عن بعضها ، وأساءوا تفسيرها وفهمها، وهذه الأسباب كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية هي التي يقوم بها الاطراد في الظواهر ، وهو الاطراد الضروري لجعل العلم الإنساني ممكنا ، ولجعل استفادة الإنسان من الأشياء ممكنة ، بل ولجعل دور المشيئة الإنسانية الممنوحة من الله تعالى ، والتي ترتبت عليها مسئوليته ممكنة أيضا . . .

العوامل الغيبية والعوامل المشهودة : -

كما أن العالم نفسه ينقسم إلى عالم مغيب وعالم مشهود ، كذلك تنقسم العوامل الفاعلة إلى عوامل مغيبة ومشهودة ،ولا يعني تقسيم العالم إلى مغيب ومشهود (محسوس) أن العالم المشهود المحسوس مستقل عن العالم المغيب ومستغن عنه ، فالعالم المغيب هو الأساس الذي يقوم عليه العالم المشهود ، والعالم المغيب مستغن عن العالم المشهود، لكن العالم المشهود على العكس من ذلك مفتقر الى العالم المغيب ، ولا يقوم إلا به ، ولا يعني افتقار العالم المشهود (المحسوس) إلى العالم المغيب أنه لا يملك وجودا حقيقياً كما يقول بذلك غلاة المتصوفة والمثاليون من الفلاسفة ، وإنما يعني أن له وجودا حقيقيا لكنه لا يستقل بنفسه ولا يستغني بوجوده . .

عالم الغيب : -

والغيب : هو ما غاب علمه عن الناس ، وهو كما يقول رشيد رضا قسمان : غيب حقيقي ، لا يعلمه إلا الله ، وغيب إضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض لأسباب تختلف باختلاف الاستعداد الفطري والعمل الكسبي ، ومن أظهره الله على بعض الغيب الحقيقي من رسله فليس لهم في ذلك كسب ، لأنه من خصائص النبوة غير المكتسبة»[1] وعلم الغيب يشتمل العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته ، وعلم بدايات الأشياء ونهاياتها ، وعلم الخلق الآخر من ملائكة وجن وعلم الآخرة ، وعلم حقائق الأشياء كما هي عليه ، وعلم ما كان وكيف كان ، وعلم ما هو كائن ، وعلم ما سيكون وكيف سيكون ، علما كاملا جامعا محيطا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، وعلم نظام الأشياء التي بمقتضاه تظهر الحوادث ، وتطرد الظواهر ، وتتماسك العوالم ، وتحقق به الأسباب والأشياء وظائفها ، وتجري به إلى غاياتها ، وعلم سر الأشياء المثبوت فيها ، وعلم النفوس وسرائرها ، وعلم ما لا نعلم مما خلق ، ومما يخلق ومما هو به أعلم ،فذلك كله من العلم الذي تفرد الله تعالى بعلمه ، لا يحيط بشر منه بشيء إلا بما شاء الله . . ولما كانت حقائق الغيب من الأمور التي لا تخضع لملاحظة البشر وتجربتهم فقد اختص الله تعالى بعلمها ، وعلمنا بها يأتي عن طريق الخبر الذي يبلغه الله عن طريق أنبيائه ، وهذا العلم من قضايا الإيمان فإذا ثبتت لنا صحة النبوة سلمنا بما جاءنا عن طريقها من علم الغيب، وليس معنى أن هذه الحقائق من الأمور المغيبة أن ننكر وجودها وننكر أثرها في الناس والأشياء، فليس ذلك مما يلزم به منهج العلم أو العقل ، وعلى المؤرخ المسلم أن يعتبر أثر المغيبات في حركة التاريخ ولا يكتفي بالعوامل التي تخضع للتجربة أو الملاحظة لأن هذا الغيب قد ثبت لنا أثره ، وجاءنا العلم به بالخبر الصادق .

---

(١) رشيد رضا . الوحي المحمدي ص ٢٠٨ .

عالم الشهادة :

أما عالم الشهادة فهو هذا العالم المحسوس الذي يخضع للملاحظة والتجربة ، ولما كان عالم الظواهر يقوم - كما سبق القول - على العالم المغيب الذي لا يخضع للتجربة والملاحظة فإن ذلك يفسر لنا ذلك الاضطراب والتخبط الذي وقع فيه الحسيون الملحدون في تعليل الظواهر وتفسير التاريخ بسبب إنكارهم للغيب ، ولهذا نرى الحسيين يضطربون في تقرير المبادىء ويخرجون كل يوم بنظرية جديدة تنقض نظرية قديمة دون أن يستقروا على حال ، لأنهم اتخذوا أهواءهم آلهة لهم وانطبق عليهم قول الله تعالى ﴿أفرأيت من اتخذ إلّهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه. وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكّرون﴾ الجاثية : ٢٣ .

العوامل الغيبية : -

وفي علم التفسير الإسلامي تأتي المشيئة الإلّهية على رأس العوامل المحركة للتاريخ والمعملة للعوامل نفسها في الناس والأشياء والتاريخ .

فالله هو الذي خلق الخلق وهو الذي رتب الأسباب ، وهو الذي يدبر الخلق ويجري الأسباب ، وحين نجد أنفسنا عاجزين عن الوقوف على حقيقة الأسباب رغم إيماننا بآثارها الظاهرة ، فإننا لا نجد مبررا عقليا تقوم به الأسباب إلا الله وحده ، خالق هذه الأسباب ، وصاحب سرها ، ومدبر أمرها ، فالإيمان بالله الخالق القادر المدبر العالم الحكيم . . ، هو الركيزة الوحيدة لنظام هذه الأسباب ، وبدون ذلك يكون الوجود كله ضربا من العبث الذي لا معنى له ، ويستحيل تفسير الحركة في العالم ، ويستحيل تفسير الحركة في التاريخ ، وقد أكد لنا القرآن على هذه الحقيقة الأساسية حين ربط لنا هذه الأسباب ربطا مباشراً بالله ، ليقول لنا إن الأسباب هي منه وبه ، ولا تعمل إلا بأمره ، أي أن نظام الأسباب لا يعمل في الأشياء والتاريخ من تلقاء نفسه ولا يعمل بصورة آلية يستغني بها العالم عن فاعل

مدبر ، وإنما يعمل بالله ، لذلك عبر القرآن عن هذه العلاقة بلفظي (جعل ، وسخر) للتأكيد على هذه الحقيقة فالله قد جعل لنا الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وجعل لنا الظلمات والنور وجعل لنا الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، وجعل لنا النهار مبصراً، ومد لنا الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ، وجعل لنا من أنفسنا أزواجا ، وجعل لنا من أزواجنا بنين وحفدة ، ورزقنا من الطيبات ، وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، وجعل لنا من بيوتنا سكنا ، وجعل لنا من جلود الأنعام بيوتا ، وجعل لنا من الجبال أكنانا وجعل لنا سرابيل تقينا الحر ، وجعل لنا من الشجر الأخضر نارا ، وجعل لنا في الأرض معايش وجعل من الماء كل شيء حي . . .

والله سخر لنا الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لنا الأنهار ، وسخر لنا الشمس والقمر ، وسخر لنا الليل والنهار ، وسخر لنا ما في السموات وما في الأرض . . والقرآن يقول لنا بهذا الأسلوب إن نظام الأسباب والمسببات المجعولة من الله والمسخرة بأمره ، ليس بديلا من إرادة الله وإنما هو أسلوبها في العمل . . . .

ومن يرتب على ذلك القول بالجبر ، وينكر النظام وسنن الله الثابتة يجهل حقيقة الإسلام ويجهل الحقائق المشاهدة التي تقطع بوجود هذا النظام البديع المتقن المحكم،وقد نبه القرآن الى وجود النظام واطراد السنن ، وحذرنا الله من تجاهل هذه السنن والتي سماها الحدود التي حدها ليطرد النظام في الأشياء وفي الحياةوفي التاريخ .وسنن الله الثابتة منها ما هو كوني يتعلق بنظام العالم كله ومنها ما هو خاص بالحياة ، أو بالنفوس أو بالمجتمعات ، وكلها سنن واجبة الاحترام ، والذي يجهل هذه السنن أو يتجاهلها لـن يعرف ولن يفهم حركة التاريخ ، وسنن الله كثيرة لا تقع تحت حصر ،منها ما نعرفه ومنها ما نجهله وقد نعرفه بعد البحث، ومنها ما لا يحيط بعلمه إلا الله .

ومن هذه السنن النبوات والوحي ، والكتب ، ومنها استجلاب رضا

الله بالطاعات واستجلاب نقمته بالمعاصي وما يترتب على ذلك من أثر في حياة الناس وأرزاقهم ، ومنها طلب الحاجات بالدعاء، ودفع البلاء به ، ومنها تحقيق النصر بالايمان ، وتحقيق النجاح بالتوكل على الله ، وهذه كلها أمور يجب ألا ينظر اليها على أنها أمور تجري خارج نطاق السنن ، ذلك لأن السنن ليست هي ما نعرفه فقط وإنما ما لا نعرفه أيضاً، وما لانعرفه منها أكثر كثيراً مما نعرفه .

والسنن التي نعرفها قابلة رغم اطرادها لأن تتوقف عندما يريد الله ذلك ، فليس اطرادها ـ مهما بلغت ألفتنا له ـ أمراً لازماً بخاصية فيه ، وإنما هو لازم ما أراد الله له ذلك،فمشيئة الله مطلقة وذلك صلب عقيدة الإسلام، فهو يفعل ما يشاء ولا معقب لحكمه ، ولا يملك أحد أن يحاسبه ، وما يعطيه فهو بفضله وكرمه ، وما يمنعه فما لا أحد عليه فيه من سلطان ، ولذلك يأتي التعبير عما يسمى اليوم بالقوانين العلمية التي يقولون عنها إنها قوانين حتمية بما يؤكد انها ليست حتمية وإنما هي مطردة لأن الله هو الذي يريد لها ذلك، فيقول عما نسميه قانون الطفو ﴿ومن آياته الجوار المنشآت في البحر كالأعلام، إن يشأ يسكن الريح ، فيظللن رواكد على ظهره﴾[1] ويقول عما نسميه قانون الجاذبية ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ؟﴾[2]

وإذن فلا يجب ان ينخدع الإنسان باطراد الظواهر، وثبات النظام ، ويرتب على ذلك القول بالحتمية، لأن هذا الاطراد لا ضمان له إلا اللهوحده، ولقد كانت مشكلة الماديين على اختلافهم هي اغترارهم باطراد الظواهر حتى حسبوا ذلك حتما على الله إن كانوا مؤمنين بإله ، أو حتماً من طبيعة

---

(١) الشورى : ٣٢ - ٣٣

(٢) فاطر : ٤١

الأشياء إن كانوا ملحدين ، ولقد كان من أجلّ الدروس التي علمها الله للمؤمنين من عباده على أيدي أنبيائهم جميعاً هي درس خرق قاعدة الاطراد حتى لا يقع المؤمنون تحت تأثير الجبرية المادية كما وقع غيرهم ، وأقول إن ذلك جاء على أيدي الأنبياء جميعاً لأن المتحذلقين من المسلمين اليوم يقولون إن الله كان يؤيد الأنبياء السابقين بالآيات المادية التي تتمثل في احياء الموتى وقلب العصا وما إلى ذلك، أما الآية التي أيد بها نبيه محمداً ﷺ فهي آية عقلية وهي القرآن مسايرة منهم للاتجاه المادي الغالب على التفكير الانساني اليوم تحت تأثير الفكر العلماني . وأقول إن الآيات التي جاء بها الأنبياء كلها عقلية وكلها في نفس الوقت خارقة لمألوف السنن ، فقلب العصى حية هي دليل عقلي يؤكد على استحالة حدوث ذلك من بشر ، كما أن القرآن هو دليل عقلي يؤكد ذلك، والفرق أن القرآن جاء ليبقى ذكراً وشريعة في الناس والآيات السابقة كانت تؤدي عملها في وقتها فقط . .

ولقد أيد الله رسوله بآيات مادية هي أدلة عقلية، ومحاولة التشكيك فيها أو السكوت عنها مسايرة للتيار نقص في الايمان ، ونقص في فهم معنى الآيات وهدف الاستدلال ، فانشقاق القمر للرسول آية مادية ثابتة ، وهي في نفس الوقت دليل عقلي ، والاسراء والمعراج آية مادية لأن الرسول قد أُسري وعرج به على القول الثابت الصحيح به روحا وجسدا ، والهدف من ذلك بيان أن هذه الأسباب التي ألف الناس جريانها على نحو ثابت يمكن أن تتغير إذا أراد الله ، والمراد هو بيان أن مشيئة الله مطلقة لا يحكمها نظامها وإنما هي التي تحكم النظام .

ومن الأسباب المغيبة التي ذكرها القرآن وجاءت بها السنة الملائكة والشياطين والجان وهي أسباب للهدي والضلال لا نعرف عنها شيئاً ولا بد في نفس الوقت أن نسلم بأثرها في الحياة والأشياء فالملائكة جنود الله يسخرها في تدبير أمره في العالم وفي الناس كما ثبت عن رسول الله أن ملائكة

يتعاقبون فينا بالليل والنهار ، وملائكة متكفلون بالرزق وآخرون بالحفظ وآخرون بتسجيل الأعمال .. الخ .

والشياطين توسوس للناس وتضلهم ، وقد أضل الشيطان آدم لولا أن هداه الله وهو يغري أولاده من بعده ، ويوسوس لهم ليضلهم عن ذكر الله ويصدهم عن سبيله ، وكان جبريل عليه السلام يأتي الرسول بالوحي فأحيانا يأتيه مثل صلصلة الجرس ، وأحياناً يأتيه على صورة رجل كما جاء في الصحيح ، ورأى المسلمون جبريل على صورة رجل حينما جاء يسأل الرسول عليه السلام عن الاسلام والإيمان وقال رسول الله ﷺ هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم كما ثبت في الصحيح أيضاً . وجاءت الجن إلى رسول الله ﷺ ليعلمهم الإسلام ، ونزلت باسمهم سورة في القرآن ... والمؤرخ المسلم يجب ان يثبت هذه الأخبار ولا يردها ولا يؤولها وقد أخطأ الشيخ محمد عبده حين أوّل الملائكة بالقوى ليقرب الأمر الى أذهان الماديين الحسيين ، ولكنى لست مع أولئك الذين يغمزون في عقيدة الشيخ بهذا التأويل لأن تلميذه رشيد رضا قد أكد أن شيخه كان يعتقد عقيدة السلف ، وأنه إنما فعل ذلك ليقرب المسائل لاشكا منه في وجود الملائكة، وهذا ما أرجحه، فإذا جاءت الأخبار بأن الملائكة قد قاتلت مع المسلمين في بدر ، أو أن الله قد شق البحر لموسى عليه السلام أو أن الشاة المسْمومة قد كلمت رسول الله ، أو ما إلى ذلك من الأخبار التي تشير الى تدخل قوى مغيبة في الأحداث الجارية ، فلا يجوز للمؤرخ أن يَرُدَّ الأخبار بحجة انها لا تتفق مع العقل فهو يخطىء بذلك وهو يفسر التاريخ على شرط الماديين ، لأن العقل الذي لا يعقل تدخل قوى غيبية في الأحداث الجارية ليس هو العقل السليم البريء من العلل ومن الهوى ومن الغرض ، وإنما هو العقل السقيم الذي طمس الله على بصيرته فما عاد يعقل إلا الأمور المحسوسة التي تقع تحت الحس وتخضع للملاحظة والتجربة . وهذا العقل المادي ليس هو العقل العلمي كما يشيع الآن خطأ ،

لأن العقل العلمي هو ذلك العقل الذي يقف عن حدود علمه المحدود ، ولا يتطرف في إنكار كل ما لا يقع عليه علمه من المجهول وهو أوسع كثيراً من كل ما عرفه البشر في كل تاريخهم بما لا يقاس .

نسبية العلم الانساني:

إن العالم الحقيقي هو ذلك الذي يعرف حدودعلمه،خاصة وحدود العلم الانساني - رغم الانبهار العصري بما وصل اليه هذا العلم - محدودة بالنسبة للكون الواسع وبالنسبة للظواهر المحسوسة نفسها ، يقول (اميل بوترو) في كتابه «العلم والدين» : «حقا . . لقد ظل العلم التجريبي زمناً طويلاً لا يزعم لنفسه قدرة اكثر من التعرف على ظواهر العالم المادي ، وترك (للميتافيزيقا) والأدب مجال الظواهر الانسانية . ولكن الأمر أصبح اليوم مختلفاً ، ذلك أن العلم الحديث بعد ان جرب أكثر فأكثر - منذ ديكارت - أثر الترتيب والمنهج في العلم العملي ، وبعد أن نجح في التعرف على كثير من الروابط بين مختلف المعارف ، أصبح يعتقد أنه جدير بمباشرة جميع أنواع الظواهر بغير استثناء . . . ويكفي أن تقع هذه الظواهر في الشعور ليعنى بها العالم، لأن العلم أصبح الآن يعنى بتفسير نشأة أحوال الشعور مهما تكن . فالعالم الآن يستخدم مناهجه في رد الباطن شيئاً فشيئاً إلى الظاهر، والغامض إلى المعروف ، والشخصي إلى الموضوعي[1] وبمعنى آخر إنه أصبح يرد الشعور إما إلى القوانين الميكانيكية أو البيولوجية أو الكيميائية . .

لقد كان العلم يعتبر وإلى وقت قريب جداً هو المعرفة المطلقة لطبيعة الأشياء أي أنه المصدر الوحيد للمعرفة اليقينية والنهائية . . وهذه بعينها (الميتافيزيقا) والتي كان يعيبها العلم على الفلسفة، لقد نقل العلم (الميتافيزيقا) بطموحها الى المعرفة الكاملة إلى عالم التجربة ، ولكن

---

(١) بوترو . العلم والدين ص ١٨٦ .

(ميتافيزيقا) العلم الجديدة أمعن إيغالاً في الخطأ من (ميتافيزيقا) أفلاطون وأرسطو التي كانت تقوم أساساً على التفكير ، وعلى الاعتراف بالحرية العقلية، أما هذه الميتافيزيقا الجديدة ، فإنها تقوم على الجبرية العلمية التي تستبعد الحرية والعقل وترد كل شيء إلى عناصر مادية وميكانيكية»[1] .

لقد أنكر العلم الحسي العالم المغيب ونفى صحة القول بالوحي والملائكة والجن،مع أن العالم المغيب يوجد في صميم العالم المشهود المحسوس، ويعجز الحسيون عن اخضاعه للمعرفة وفق شروطهم الحسية يقول (ديبوا ريموند) في مقال حدد فيه الالغاز التي تخرج عن نطاق التجربة المادية مثل: ماهية المادة والقوة ، وأصل الحركة ، وأصل الإحساس البسيط ، وحرية الإرادة . . إننا مهما افترضنا امتداد التجربة فانها لا يمكن ان تبلغ الأصول الأولى للاشياء ، ولا الغايات الأخيرة لها . فالتجربة لا تستطيع ولن تستطيع أبداً أن تصل في الزمان إلى ظاهرة أولى أو أخيرة، والزعم بأن ذلك ممكن بالتجربة هو محض خرافة ، فالكائن حين يمضي في اطراد خاص تحكمه قوانين يمكن التعرف عليها ، لا نستطيع أن نعرف بالتجربة لماذا يتخذ الكائن هذا الإطراد تبعاً لهذه القوانين ولا نستطيع بالتجربة الوصول الىٰ أي تفسير للسر الكامن وراء هذا الاطراد الذي تحكمه القوانين، وإذا كان العلم عاجزاً عن تفسير سر هذا الاطراد الذي تحكمه القوانين،فهو من جهة أخرى عاجز كذلك عن أن يقدم للظاهرة وصفاً يكون مطابقاً لوجودها الواقعي ،وكل ما يستطيعه هو أن يعبر عن فهمه لهذه الظاهرة من خلال مصطلحات في صورة علاقات وقياسات وقوانين،ولا شيء أكثر من ذلك، وهذه المصطلحات بدورها لا تستطيع أن تقدم صورة مطابقة للوجود الواقعي ، وقد بدا يسود في الدوائر العلمية على اختلافها إحساس عام بأن علم الظواهر ليس تمثيلاً كاملاً

---

(١) العلم والدين ص ١٨٦ ببعض التصرف .

للموجود ، وإنما هو طريقة معينة لإدراكه . . .»[1]

وعليه يكون باطلاً ادعاء أصحاب المنهج الاستردادي الحديث للتاريخ إمكانية استعادة أحداث التاريخ في مجرى الزمان في الذهن بطريقة عقلية صرفة عن طريق استحياء تجارب الماضي بنوع من التخيل من خلال دراسة الوثائق التاريخية[2] ذلك أننا حتى مع افتراض توفر وثائق كاملة وصحيحة تماماً ـ وذلك شرط متعذر جداً ـ لا نستطيع ذلك لأن كثيراً جداً من العوامل التي أثرت في الواقعة أو أحدثتها قد غابت من الوثائق ، لقد جنى المؤرخون الاستراديون على تاريخ بني اسرائيل وشوهوه أكثر مما شوهه بنو اسرائيل أنفسهم لأنهم استبعدوا من هذا التاريخ أثر العوامل المغيبة جملة، وهي عوامل أساسية في صناعة هذا التاريخ مثل ما هي عوامل أساسية في صناعة تاريخ الاسلام ، وتاريخ النبوات على وجه العموم ، فماذا أصبح تاريخ بني اسرائيل على أيدي أصحاب المنهج العلمي المحايد الموضوعي . . الى آخر هذه الشنشنات الضخمة . . ؟ أصبح موسى عليه السلام شخصية أسطورية لا وجود لها حينا ، وأصبح شخصية مصرية حينا ، وعلى التفسير الأول يكون موسى عليه السلام تجسيداً لإحساس اليهود بالقهر ورغبتهم في ظهور شخصية عظيمة تتجسد فيها كل صفات القوة لتخلصهم منه ، وعلى التفسير الثاني أي موسى المصري يكون موسى شخصية مصرية نسبها اليهود الى أنفسهم ليرفعوا من قيمتهم التاريخية بالانتماء إلى شخصية مصرية عظيمة ، كذلك فسرت شخصية المسيح فأنكر وجوده التاريخي حينا ، وقيل عنه إنه شخصية عادية أضيف إليها هالات أسطورية حيناً آخر . .

بمثل ذلك حاول العلمانيون تفسير التاريخ الاسلامي فأنكروا العوامل

---

(١) نفس المصدر ص ١٨٨ .
(٢) نفس المصدر ص ١٨٩ / ١٩٠ .

المغيبة ،عدّه بعضهم هجمة بربرية أتت على الحضارة الانسانية، وعده آخرون على العكس تجسيداً ليقظة عربية ، وعده آخرون موجة من موجات الهجرات العربية ، وأخيراً اعتبره الماركسيون صراعاً طبقياً بين الأغنياء والفقراء والسادة والعبيد قاتلهم الله جميعاً أنى يؤفكون . .

العوامل المشهودة :

العوامل المشهودة هي العوامل التي يعتبرها العلمانيون على اختلاف مدارسهم ، وحين تستبعد التأويلات الأسطورية والخرافية من التفسيرات الحديثة بالعوامل لا نجد عاملاً واحداً معتبراً من هذه العوامل له قيمة تاريخية حقيقة إلا عده الكتاب والسنّة عدا ، وأحصاه احصاء لا يغادر شيئاً ، والعوامل المعتبرة عند المؤرخين تتلخص في عاملين إثنين لا ثالث لهما هما: الانسان والظروف المحيطة به . فالإنسان باعتبار حريته عند قوم ، واعتبار خصائصه عند آخرين ، واعتبار موروثاته المكتسبة عند غيرهم ، والظروف والتي تعني البيئة بمعناها الواسع الذي يشمل الجغرافيا ، والعصر ، والمجتمع بأشكال علاقاته المختلفة التي تشمل العلاقات السياسية والاقتصادية والتقاليد والنظم والثقافات . . الخ ، كلها جميعاً نبه الى أثرها الكتاب والسنّة .

فقد نبه القرآن الى دور العامل الإنساني المتمثل في حرية المشيئة، وفي الفطرة الانسانية بنقائضها قال تعالى ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره﴾(١) وقال ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾(٢) وقال ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾(٣) فالإنسان حر في إطار النظام العام وهذه الحرية تصنع التاريخ ، والانسان في أصل فطرته مفطور على خلائق

(١) القيامة : ١٤ .
(٢) الكهف : ٢٩ .
(٣) الجاثية : ١٥ .

تؤثر في اختياره وتؤثر في حركته التاريخية ، فقد خلق الانسان ضعيفاً ، وكان الإنسان عجولاً ، وهو ظلوم كفار، وقد زين له حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة من الأنعام والحرث ، والإنسان يطغى إذا استغنى ، وهو يحب النعم ، ويكره النقم وهو خصيم مبين ، وقد خلق الانسان هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، وقد خلق في أحسن تقويم ، وأعطاه الله السمع والبصر والفؤاد . . الخ . . فهناك إذن حرية يصرف بها الإنسان الأشياء ويتصرف بها في الحياة . .

وهناك خصائص في أصل خلقة الانسان تجعله يحسن ويسيء ، وهو بمقتضى هذه الخصائص يتأثر بالظروف المحيطة به اقتصادية كانت أو غيرها كما أنه يؤثرفيها ، والناس ليسوا جميعاً على شاكلة واحدة في هذه الخصائص وإنما هم متفاوتون وبذلك تتفاوت أعمالهم ﴿لا يستوي الخبيث والطيب﴾(١) ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (٢).

وقد نبه الرسول ﷺ إلى هذا الأصل الجليل الخطير فيما ثبت عنه في الصحيح في قوله «الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، وهذا أصل نفيس لابد من استيعاب دلالته لمن يريد أن يدرس تاريخ الإسلام . .

ولقد ضرب الله أمثلة كثيرة على مدى تأثير هذه الاستعدادات والخصائص والتكوينات النفسية في حركة التاريخ فضرب مثلاً بطغيان فرعون بتأثير الملك وهو مثل يطرد في الطغاة جميعاً في كل عصر فقال ﴿أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا

---

(١) المائدة : ١٠٠ .

(٢) الزمر : ٩

الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾[1]وضرب مثلاً لفساد نفوس الناس بالذل، ـ وهو مثل يقاس به أثر الذل في كل عصر - بقوم فرعون، فقال: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾[2]، وضرب مثلاً لطغيان قارون بالمال، وهو مثل يفسر به أثر المال على النفوس في كل عصر فقال ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾.. الى قوله .. ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي (نفس مقالة من أطغاهم المال في كل زمان). ﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾[3] وضرب مثلاً لشكر النعم وبطرها بقوم سبأ وأثر ذلك على حياتهم وحركتهم التاريخية، وهو مثل يكشف عن سنة اجتماعية أساسية في حركة العمران الانساني لا تتخلف قط، وهي ازدهار العمران بالشكر المتمثل في حسن العمل و حسن الاستخدام، وعدالة التوزيع للعمل والجهد والنتائج، وانهياره بعكس دلك كما أفاض في ذلك العلامة ابن خلدون، ذلك ان شكر النعم وكفرانها ليس قولاً باللسان فقط وإن كان توجيه الشكر لله على نعمه من أصول العبادة، وإنما يكون أيضاً بالعمل المطابق لقول اللسان، قال تعالى ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾[4] .. الى آخر الآيات وهذا مثل معبر الى أقصى حد عن مدى تداخل العوامل الغيبية والمشهودة وتكاملها وتفاعلها في الحدث التاريخي.

---

(١) الزخرف : ٥١ / ٥٢ .
(٢) الزخرف : ٥٣ .
(٣) القصص : ٧٦ .
(٤) سبأ : ١٢ / ٢١ .

وقد فصل القرآن القول تفصيلاً في أثر البطر ، وأثر الطغيان ، وأثر الشكر ، وحسن الاستعمال فليرجع إليه من يريد المزيد . .

كذلك أبرز القرآن كما أبرزت السنّـة أثر العوامل الاجتماعية المتمثلة في اتباع الآباء ، واستحكام العادات ، والتقليد ، واستفاض الحديث عن ذلك في الكتاب والسنة ، وقد أبرز الرسول أثر العادة الاجتماعية والوسط الإجتماعي على فكر الانسان وسلوكه ومعتقداته في الحديث الجليل العظيم الصحيح الذي يقول فيه « كل مولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء (أي سليمة كاملة الأعضاء) ، هل تحسون فيها من جدعاء (أي ناقصة) »[١] ويمكن أن نضيف قياساً ، ويعلمنانه ، ويمركسانه ويؤمركانه ، ويفرنسانه . . الخ . فذلك أصل جليل جداً بنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه الجليل العظيم اقتضاء الصراط المستقيم ، وهو كتاب يدور حول تأثير الوسط الإجتماعي على الشخصية الإجتماعية ، وينبه فيه إلى مخاطر تقليد المسلمين لغير المسلمين في عقائدهم ، وعاداتهم الإجتماعية والسلوكية على الشخصية الإسلامية ، وهو كتاب جليل يصلح قاعدة للدراسات النفسية والاجتماعية لمجتمع المسلمين ، ولبيان الأسس النفسية والاجتماعية التي يجب أن يقوم عليها هذا المجتمع . . وأسأل نفسي : ترى لماذا لا تدرس أمثال هذه الكتب النفسية في أقسام علوم النفس والاجتماع في جامعاتنا الإسلامية . . ؟ أم يا ترى لا بد من أن يوضع على هذه الكتب اسم أحد الخواجات من أمثال فرويد ودوركايم ، حتى يكون ذلك جواز المرور الذي لا بد منه لدخول هذه الأقسام . . ؟. .

كذلك نبه الإسلام إلى اعتبار العامل الجغرافي ، وإلى تأثير اختلاف

---

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد وابن حبان . . راجع هامش المدخل الى الثقافة الاسلامية د . محمد رشاد سالم ص ١٨٥ .

المكان وما يترتب على هذا الاختلاف من آثار في العادات والأخلاق والسلوك ، وقد فرق القرآن الكريم وكذلك السنّة تفرقة واضحة بين العربي والأعرابي، وبين البدوي والحضري، وشددا على مراعاة التفرقة بينهما، ورتبا على ذلك نتائج خطيرة في أحكام الدين، فقد نهى عن ان يبيع حاضر لباد، كما نهى عن تلقي البدو خارج المدينة ، وذلك حتى لا يتعرض البدوي السليم الفطرة والطوية لخطر الخداع من الحضري الذي تلبست نفسه ببعض الخبث فيخدع البدوي بكلام معسول يجوز عليه فيبخس له بضاعته ويأخذها منه بأقل مما تستحق .وقد قال ﷺ « من سكن البادية جفا » قد يفهم البعض من التبدي سكنى البادية باطلاق فإن أكثر العرب بادية ، وقد كانت العرب تأتي الى النبي ﷺ فتسلم فلا ينكر عليها النبي ﷺ عليها ذلك ولا ينهاها عنه ، إنما المقصودمن التبدي الموجب للجفاء هو انقطاع الرجل في ماله في عزلة عن الناس فتنقطع بينه وبينهم وسائل الاتصال الضروري اللازم لاكتساب الاخلاق والعادات الحسنة، لأن الإنسان يكتسب أخلاقه من المعايشة والمشاركة ، وقد فهم البعض من تشديد الرسول ﷺ على أصحابه في التبدي مجرد الاستمساك بالهجرة، ولقد كان الأمر أخطر من ذلك ، لقد كان رسول الله ﷺ عالماً بالنفوس ، ويعرف أثر البيئة والظروف على النفس ، ويعرف أن إقامة المجتمع الإسلامي الصحيح لا بد لها من توفير الظروف والمناخ والبيئة المناسبة ، فالإسلام ليس مجرد دعوة إلى دين ، وإنما هو أيضاً بناء لمجتمع انساني جديد أساسه الإسلام ، ومن الضروري لنجاح هذا البناء أن تراعى سنن الله في الاجتماع الإنساني في إقامته ، ولقد كان الرسول عليه السلام يخاف من النكسة على قوم حديثي عهد بالإسلام، وكان يخشى عليهم أن يرتدوا إلى جاهليتهم إذا انعزلوا عن مناخ هذا المجتمع الجديد ، لقد كان الرسول ﷺ مكتمل الوعي بتأثير المناخ والظروف على أي فرد مهما بلغت

(١) روى أبو داود وغيره من حديث الثوري : حدثني أبو موسى عن وهبه بن منبه عن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي ﷺ ـ قال سفيان مرة ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ ـ قال : « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » .

صحبته ومهما كانت درجة إيمانه ، وكان مكتمل الوعي بأن الإسلام لا يمكن أن يثبت ويستقر إلا في إطار اجتماعي خاص به ، يشترط فيه من الوعي ودقة الفهم ، وعمق الاحساس ، ما لا يتوفر في ظروف العزلة في البادية، لأن التبدي والاعتزال سوف يأخذان المؤمن شيئاً فشيئاً بعيداً عن إيمانه ، ويجردانه من وعيه بالإسلام ، ومن احساسه بالمسئولية تجاه المجتمع المسلم ، وقد يصل به الأمر إلى أن يرتد أعربياً فظاً غليظاً جاهلاً ، لا تتأثر عواطفه ، ولا تستجيب نفسه للموعظة ، وتنطمس فيه قدرته على الفهم والتمييز كهؤلاء الأعراب الذين قال الله فيهم ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾[1] ولقد تأكد صدق ذلك كله في قصّة ذلك الرجل الذي ضربه الله مثلاً، والذي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يأذن له بأن يقيم في ماله ، ويعد بأنه حين يكثر الله ماله ليصدقن وليكونن من الصالحين ، ولقد نهاه الرسول فما انتهى ، وخرج الى ماله، وانقطع فيه ، وانقطع بذلك عن المناخ العقلي والنفسي والأخلاقي للإسلام واكتسب غلظة الأعراب وجفاءهم ، وارتد على عقبيه بعد ايمان فضربه الله مثلاً على تأثير البيئة والظروف ، وعلى تأثير الانقطاع عن الاتصال بالمجتمع السوي الصحيح . فقال : ﴿ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون﴾ التوبة : ٧٥ .

اعتبار الإسلام وعلماء المسلمين للعوامل في التشريع وتفسير الحوادث :-

لم ينبه الإسلام فقط إلى هذه العوامل وأثرها ، وإنما رتب أحكامه على مقتضاها، ففتح باب التوبة على أساس « أن كل بني آدم خطاءون »[2] ، وبنى

(١) التوبة : ٩٧ .

(٢) عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :« كلّ ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون » رواه الترمذي وابن ماجه .

أحكامه على أساس رفع الحرج ، ورفع الضرر . فقصر صلاة المسافر، وأعفى الحائض من الصلاة والصيام فترة الحيض وكذلك النفاس مع اشتراط القضاء في الصيام وخفف عن المريض في الصلاة ليصلي حسب حالته قاعداً أو نائماً ، وأجاز له الفطر حتى يشفى وأجاز التيمم عند فقد الماء أو خشية الأذى ، وأباح أكل المحرمات عند الضرورة كخشية الموت جوعاً ، وحرم الرهبنة ودعا إلى الاعتدال ، وأقر العرف الاجتماعي ما لم يصطدم بأصل من أصول الدين وعليه جرى عمل الفقهاء في تقرير المصالح المرسلة، وهي التي لم يدل دليل شرعي على اعتبارها أو الغائها ، ومن ذلك ابقاء الأرض الزراعية في أيدي أصحابها ، ووضع الخراج وأوقف حد السرقة في المجاعات وما إلى ذلك من المصالح التي يراعى فيها تبدل الظروف واختلافها دون الخروج على أصل شرعي مقرر ، وكذلك اعتبروا العرف الإجتماعي إذا كان لا يصطدم بأصل شرعي وقالوا : العادة شريعة محكمة والعرف في الشرع له اعتبار ، ومن العبارات الجليلة المشهورة عنهم: « المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً ، والثابت بالعرف كالثابت بالنص »[1] .

وعلى هذا الأساس اعتبر العلماء ما جرى بين أصحاب رسول الله ﷺ من خلاف ، وما وقع بعدهم من تصرفات ، وقدروا في النظر اليها اختلاف الظروف والأحوال ، ونظروا إلى الممكن في حدود ظروف الناس وعصرهم ، ولم يتصوروا الإسلام ديناً مثالياً على طريقة الفلاسفة المثاليّين الحالمين الذين ينكرون حدود قدرات الناس وأثر العوامل ويحلمون بمجتمعات إنسانية تعيش فيها ملائكة يمشون على الأرض مطمئنين ، وقد نبه القرآن الكريم إلى فساد هذا التصور حين قال ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا ﴾[2] وذلك رداً على قول الكافرين لما جاءهم الهدى ﴿أبعث الله بشراً رسولاً ؟! ﴾[3] كما سخر منه في عَرْضِهِ لقول القائلين

(١) عبد الوهاب خلاف ، أصول الفقه ص ٨٩ / ٩٠

(٢، ٣) الاسراء : ٩٤ / ٩٥ .

﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ الفرقان : ٧ / ٩ .

لقد ضل هؤلاء كما ضل الخياليون والحالمون في كل عصر ، لأن الدين لا يأتي ليبني للناس جنة على الأرض يتخلص فيها الناس من قصورهم ، ومن أثر العوامل عليهم ، فذلك في الاسلام لا يكون إلا في عالم آخر يبدل الإنسان المؤمن فيها خلقاً جديداً مبرأ من القُصور ، ويبدل عالم المؤمنين فيه بعالم جديد يكون للعوامل فيه دور جديد هو تحقيق الحياة السعيدة الدائمة أبداً . . .

أما على الأرض فإن وظيفة الدين هي تذكير الناس بربهم كلما نسوا ، ومعاونتهم على قصورهم ، وعلى ظروفهم بالموعظة والقدوة ، وتهيئة الظروف الملائمة التي لا تقطع دابر الشرور ، ولكن تخفف منها ، ولا تقطع دابر المعاصي ولكن تقلل منها . . لذاك قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله فيغفر لهم » رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ذلك أن قيمة الإنسان في الدنيا لا تأتي من براءة الحياة من العلل في حياة خيالية كحياة حي بن يقظان في جزيرة ابن طفيل ، وإنما تأتي من المكابدة والمجاهدة في حياة مملوءة بظروف المقاومة ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ الإنشقاق: ٦

وفي كتب السنن باب يسمى باب الفتن لو أحسن فهمه على وجهه الصحيح لعرف المسلمون فيه مفتاحاً عظيماً لفهم التاريخ الاسلامي وتفسيره يقول فيه رسول الله ﷺ « من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه من خرج من طاعة السلطان شبراً مات ميتة جاهلية » رواه البخاري عن ابن عباس ، وفي

البخاري أيضاً عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال دعانا النبي ﷺ فبايعناه ، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر، إلا أن تـروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان » ، وفيه أيضاً عن أنس وقد شكى إليه ما لقي الناس من الحجاج فقال: صبروا فإنه لا يأمن عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ » . . .

ترى ماذا يفهم المفسرون المحدثون من هذه التوجيهات ؟ هل يا ترى يفهمون منها أن الرسول عليه السلام يأمر المسلمين بالرضى بالظلم والإقرار به ؟ حاشا لرسول الله وحاشا للمسلمين أن يفهموا ذلك من رسولهم وهو الذي يقول لهم في مواضع أخرى « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[1] ، ويقول : « إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم ، فقد تودع منهم »[2] . . . . ترى هل يفهمون ذلك على أنه تناقض في التوجيه ؟ . حاشا للرسول وحاشا للمسلمين أن يفهموا عن رسولهم ذلك ، إنما هو الفهم الدقيق السليم للتاريخ ، وللعوامل المؤثرة فيه ، وإنما هو اعتبار للظروف والمناسبات والأحوال ، وتنبيه للمسلمين إلى الفقه والبصر والحكمة واستعمال العقل ، ذلك لأن الهدف الأساسي هو بناء الوحدة ، وجمع الصف ، ولو كان ذلك على حساب بعض الحقوق ، ولو كان ذلك بالتجاوز عن بعض المظالم ، وفي مجال الترجيح والموازنة تأتي وحدة الأمة الإسلامية فوق كل اعتبار، ولذلك أجاز المسلمون ولاية المفضول مع وجود الأفضل ، بل أجازوا ولاية الغلبة إذا كان في الخروج عليها شق لصفوف الجماعة وتمزيق لوحدة

---

(١) عن أبي عبد الله طارق بن شهاب البَجليّ الأحمس أن رجلاً سأل النبي ﷺ ، وقد وضع رجله في الغَرْز ! أي الجهاد أفضل ؟ ، قال : كلمة حق عند سلطان جائر رواه النسائي باسناد صحيح . وروى في معناه ابن ماجه والترمذي والحاكم باسناد صحيح .

(٢) رواه الحاكم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وقال : صحيح الإسناد .

المسلمين ، بل أجازوا ولاية الفاسق إذا ترتب على الخروج عليه مضرة أكبر من مضرة فسقه . .

بل وفضل الامام ابن تيمية في كتابه النفيس ـ السياسة الشرعية ـ ولاية القوي الفاجر على الضعيف الورع لأن مصلحة المسلمين تتحقق بالأول دون الثاني قال : اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل . . . فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة ، والآخر أعظم قوة ، قدم أنفعهما لتلك الولاية ، وأقلهما ضرراً فيها ، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع ، وإن كان فيه فجور فيها ، على الرجل الضعيف العاجز ، وإن كان أميناً ، كما سئل الإمام أحمد : عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو ، وأحدهما قويّ فاجر والآخر صالح ضعيف ، مع أيهما يُغْزَى ؟ فقال : أما الفاجر القوي ، فقوته للمسلمين ، فيغزى مع القوي الفاجر[1] . وقد قال النبي ﷺ «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» وروي «بأقوام لاخلاق لهم» فإذا لم يكن فاجراً ، كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين ، إذا لم يسد مسده »[2] .

. . إن تفسير تاريخ المسلمين وفهمه يحتاج ـ يا قوم ـ إلى فقه في الدين ، وبصر بالسنن ، ولقد فهم المسلمون الأولون دينهم وسنن ربهم ، وعلى أساس من هذا الفهم أقاموا مجتمعهم وحققوا وحدتهم . . أقاموه على الأرض بظروفها وأحوالها ، ولم يقيموه في السماء ، ولا في خيالات الحالمين ، ولذلك بقيت وحدتهم وعاشت وأثمرت رغم كل الظروف ورغم تعدد الأجناس لأنهم أقاموها على أساس من هذا الفقه والبصر بسنن الله . إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . .

---

(١) انظر إلى هذا الفقه الدقيق من هذا الإمام الجليل الذي يرميه الجاهلون بتاريخنا ورجاله بالغفلة ، وضيق الأفق .

(٢) السياسة الشرعية ص ٢١ / ٢٢ .

● شروط لا بد من توافرها لدراسة التاريخ الاسلامي وتفسيره . . .

. . . بعد هذا الحديث السريع عن الخطوط العريضة لدراسة وتفسير التاريخ الإسلامي يتعين الحديث عن الشروط التي يجب أن تتوفر في من يتصدى لدراسة التاريخ الإسلامي وتفسيره ، وذلك أن الباحث في التاريخ الاسلامي لا بد أن تتوفر فيه شروط خاصة لا بد منها لكي يكون مؤهلاً للبحث في هذا التاريخ ، ذلك أن التخبط الذي حدث في فهم هذا التاريخ وتفسيره إنما نجم عن فقدان الأهلية لدراسة هذا التاريخ ، وأهم هذه الشروط هي : ١ـ الإخلاص والتجرد ٢ـ الخبرة باللغة العربية وأساليبها ٣ـ العلم الصحيح بالاسلام وعلومه الضرورية ٤ ـ المعرفة الصحيحة بتاريخ العرب وحياتهم قبل نزول القرآن ٥ ـ معرفة الحالة التي كانت عليها الأمم الأخرى قبل الدخول في الاسلام . هذه هي جملة الشروط الأساسية الضرورية التي لا بد من توافرها للوصول إلى فهم صحيح للتاريخ الإسلامي ، وسنتكلم عن كل واحد من هذه الشروط بإيجاز . .

١ ـ الإخلاص والتجرد :ـ

سبق أن أشرت إلى تشديد الإسلام وتشديد علمائه على ضرورة مراعاة هذا الشرط عند البحث ، ذلك أن هدف الباحث يجب أن يكون طلب الحق كيفما كان ، لا طلب الحجج والتماس الأدلة لتأييد رأي خاص ، أو فكرة مسبقة ، أو الانتصار لمذهب بعينه أو لمعتقد أو جنس ، وقد دخل أكثر

التشويه على التاريخ الإسلامي قديماً وحديثاً من هذا الباب ، فقديماً أفسد الحاقدون على الإسلام الأخبار وزيفوها وصنعوها ، كيداً للإسلام وطعناً فيه وفي أهله ، وحديثاً حدث نفس الشيء ؛ كما ساهم في هذه العملية أصحاب البدع والأهواء من أصحاب العصبيات المذهبية والسياسية والعنصرية على النحو الذي ذكره القاضي ابن العربي وعرضنا له في مقال سابق . .

الصليبية الحديثة ودورها في تشويه التاريخ الإسلامي : -

وكما تعرض التاريخ الإسلامي للتشويه قديماً على أيدي الحاقدين والمتعصبين ، تعرض حديثاً لتشويه أشنع على يد المتعصبين من الصليبيين المحدثين ، لقد كان الهدف الأساسي من دراسة المبشرين للإسلام وتاريخه هو تتبع العورات واقتناص الهفوات ، وتسقّط العثرات ليشنّعوا بها على المسلمين ، كما كان دأبهم تشويه الحقيقة ، وتحريف الوقائع للوصول إلى نفس الغرض ، لقد درس هؤلاء تاريخ الإسلام بقلوب مشبعة بالحقد ، وعقول أعماها الهوى والغرض فعاثوا فيه إفساداً ، ولم يكن هدفهم الوصول إلى الحق ، وإنما كان هدفهم طمس الحق وتزييفه . ويعد من أعظم العابثين بتاريخ الإسلام كما يقول كرد علي « جماعة يدعون إلى النصرانية ، قد جعلوا همهم الأكبر في دعوتهم تشويه بعض الحقائق الثابتة ، فنازعونا في البديهيات ، وأملوا ولا يزالون يملون علينا ضروباً من إفكهم . . ومن هؤلاء بل من المقدمين فيهم مؤلف اسمه لامنس ، عاهد تاريخ الإسلام على مناقضته . . ألف لامنس تاريخاً مختصراً للشام لم يذكر فيه للإسلام ولا للعرب محمدة واحدة مدة ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن . . ومثل لامنس كان صنوه وزميله شيخو ، فإنه لم يأل جهداً في إثبات دعواه أن العرب قبل الإسلام وبعده لا شأن لهم في المدنيّة ، وإذا كان هناك من حضارة فبنو مجدتها نصارى العرب .[1] أضف إلى هؤلاء : نولوك ومرجليوث ، وموير

(١) الإسلام والحضارة العربية جـ١ ط٣ ص ٣٠ / ٣١

وكينياتي . وعشرات غيرهم، وحتى أولئك الملحدين الذين خرجوا على المسيحية ونقدوها إذا كتبوا على الإسلام نسوا الحيدة الموضوعية ، والنزاهة العلمية ، وخاضوا في الإسلام بالباطل مثل غيرهم من المتعصبين للمسيحية ومن أمثال هؤلاء أرنست رينان الملحد الذي أشرنا إليه في مقالات سابقة ، ويعلل جوستاف لوبون ظاهرة التحامل على الإسلام وتاريخه ممن يدعون المنهجية والحياد العلمي ، فيقول كما ترجم عنه كرد علي ـ بعد أن بين فضل العرب على الحضارة الإنسانية ـ : « ربما تساءل القارىء : ولماذا غمط اليوم حق العرب وتأثيرهم ، وأنكر حسناتهم علماء عرفوا باستقلال أفكارهم ، وكانوا بحسب الظاهر بمعزل عن الأوهام الدينية؟. وهذا السؤال قد سألته نفسي ، وأرى أنه لا جواب عليه غير ما أنا كاتب . . ذلك أن استقلال آرائنا هو في الواقع صوري أكثر مما هو حقيقي ، ونحن لسنا أحراراً على ما نريد في خوض بعض الموضوعات ، وهذا لأن فينا رجلين : الرجل الحديث الذي صاغته دروس التهذيب ، وعملت البيئة الأدبية والمعنوية في تنشئته . والرجل القديم المجبول على الزمن بخميرة الأجداد وبروح لا يعرف قراره يتألف من ماض طويل ، وهذا الروح اللاشعوري هو وحده الذي ينطق في معظم الرجال ، ويبدو في أنفسهم بمظاهر مختلفة ، يؤيد فيهم المعتقدات التي اعتقدوها ، ويملي عليهم آراءهم ، وتظهر هذه الآراء بالغة حداً عظيماً من الحرية في الظاهر فتحترم . . . لا جرم أن أشياع محمد (ﷺ) كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعْداء الذين عرفتهم أوربا ، فكانوا بتهديدهم الغرب بسلاحهم في عهد شارل مارتيل ، وفي الحروب الصليبية ، وبعد استيلائهم على الآستانة ، يذلوننا بمدنيتهم السامية الساحقة ، وإلى أمس الدابر لم ننج من تأثيراتهم . ولقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا ، والنقمة على الإسلام وأشياعه عدة قرون ، حتى أصبحت جزءاً من نظامنا ، وكانت هذه الأوهام طبيعية متأصلة فينا ، كالبغض المستتر أبداً في

أعماق قلوب النصارى لليهود . . .

«وإذا أضفنا إلى أوهامنا الموروثة في إنكار فضل المسلمين هذا الوهم الموروث أيضاً النامي في كل جيل ، بفعل تربيتنا المدرسية الممقوتة ، ودعوانا أن جميع العلوم والآداب الماضية أتتنا من اليونان واللاتين فقط ، ندرك على أيسر سبيل أن تأثير العرب البليغ في تاريخ مدنية أوربا قد تم تجاهله . ويرى بعض أرباب الأفكار أن من المذل على الدوام الذهاب إلى أن أوربا النصرانية ، مدينة لأعداء دينها بخروجها من ظلمة التوحش . وهناك أمر يحمل في مطاويه ذلاً كثيراً في الظاهر لا يقبل تحمله إلا بشيء من العنت . وذلك أنه كان للمدنية الإسلامية تأثير عظيم في العالم ، وتم لها هذا التأثير بفضل العرب ، بل والعناصر المختلفة التي دانت بالإسلام . وبنفوذهم الأدبي هذبوا الشعوب البربرية التي قضت على الأمبراطورية الرومانية ، وبتأثيرهم العقلي فتحوا لأوربا عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية ، وهذا ما كانت تجهله ، وعلى ذلك كان العرب أساتذتنا مدة ستمائة سنة »[١] .

تأثير المعتقد الخاص :

وحتى إذا افترضنا براءة المستشرق من كل أنواع التحامل الظاهر والخفي فإنه لن يبرأ من تأثير معتقده الخاص ، فهذا لوبون نفسه تحت تأثير اعتقاده بدور العرق باعتباره العامل الأساسي في التاريخ تراه بقدر انصافه للعرب بقدر تشنيعه على الترك، ولا نريد هنا أن ندخل في جدل حول هذه المسألة ، ولا نريد أن نبرىء الترك من كل عيب كما يفعل بعضهم الآن ، وإنما الذي ندعو إليه هو الانصاف البريء من الغرض والتحامل . .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ط ٣ ص ٨ / ٩

وقد أورد الأستاذ عادل زعيتر هذا النص في ترجمته لكتاب الحضارة العربية ، لجوستاف لوبون بعبارات لا تخرج عن هذا المعنى ، راجع الكتاب المذكور ص ٥٧٧ / ٥٧٩.

التفسير الاشتراكي الماركسي للتاريخ الاسلامي :

ومن جنايات المعتقد الخاص حديثاً على التاريخ الإسلامي تسليط المنهج الماركسي على تفسير هذا التاريخ ، ذلك أن الماركسية تذهب إلى القول بأن العامل الإقتصادي هو العامل الوحيد المحرك للتاريخ ، وتنظر إلى التاريخ الإنساني كله على أنه تاريخ صراع بين الطبقات ، ولست هنا في مجال تفنيد هذا القول ، ولكني أقصر حديثي على دور هذا التفسير في تشويه التاريخ الاسلامي ، لقد كتب أستاذ شيوعي كان يعمل استـاذاً للتاريخ في الجامعة العبرية بالقدس ، وهو روسي الأصل، كتاباً نشر عام ١٩٢٧ عنوانه (الحركات السرية في الاسلام) ، ذهب فيه إلى أن التاريخ الإسلامي هو تاريخ الصراع بين المستغِلين والمستَغلين بين السادة والعبيد، وبين الأغنياء والفقراء وزعم أن العبيد والفقراء في مكة بـقـيـادة محـمـد (ﷺ)- كبرت كلمة تخرج من أفـواههم - قد ثاروا على الطبقـة الغنية (الأرستقراطية) من قريش بسبب عسفها وجورها، وقد قاد محمد (ﷺ) - وكذب الخراصون - هذا الصراع باسم الدين ، ثم تتابع الصراع بعد وفاته ، فكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يمثلان - في زعمه الكاذب - سياسة الوسط الذي يريد أن يهادن الطرفين ، وكان عثمان رضي الله عنه بعد ذلك زعيماً لليمين- في زعمه - كما كان علي رضي الله عنه زعيماً لليسار ، ثم يستمر في هذا الهراء فيصور الحكم الأموي والعباسي عـلى أنه حكم (الارستقراطية)القرشية، بينما يصور حركات الملاحدة والزنادقة من الباطنية والقرامطة وغيرهما على أنها تمثل اليسار الذي يمثل كما زعم الاتجاه الصحيح للإسلام، وكذب الخراصون، وقد كان هذا الكتيب الصغير شبه المجهول هو الأساس الذي بنى عليه الآخرون تفسيرهم الماركسي للإسلام ، وهو التفسير الذي بدأ على يد طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى ، وتابعه فيه عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه المسموم (محمد رسول الحرية) ، كما تابعه في ذلك أحمد

عباس صالح في مقالاته التي نشرها في مجلة الكاتب تحت عنوان (اليمين واليسار في الاسلام) ، وتصدى لتفنيدها ـ مشكوراً الكاتب الاسلامي الدكتور فتحي عثمان في مجلة الثقافة ، وأخيراً لا آخراً في المقالات التي كتبها د . محمود اسماعيل أستاذ التاريخ الإسلامي ـ ويا للعجب العجاب ـ في جامعة عين شمس والتي نشرها في مجلة روز اليوسف تحت عنوان (الحركات السرية في الاسلام رؤية عصرية) ، وقد تصدى له الكاتب الاسلامي الشيخ أحمد سالم ، والأستاذ عبد الغني سعيد وأنا ، وكان من حظه السيء أني كنت قد قرأت كتاب بندلي جوزي ، وهو كما قلت شبه مجهول ، ولا توجد منه سوى نسخ نادرة في بعض المكتبات ، وقد هالني أني وجدت الكاتب لم يفعل شيئاً أكثر من أنه سطا على كتاب بندلي جوزي وأخذ ينشره في سلسلة مقالات تحمل توقيعه ، وكأنه كان آمناً من أن أحداً لن يطلع على كتاب بندلي شبه المجهول ، وقد فاجأته الردود التي كشفت سطوه على الكتاب المذكور ، فرد ردوداً عصبية غير منهجية ـ وكأنما التاريخ يعيد نفسه ! ـ ثم سارعت المجلة الشيوعية في ذلك الوقت وهي روز اليوسف ـ والتي فتحت له صدرها لنشر سرقاته أو سخافاته ـ واقفلت باب النقاش حتى تحول بيننا وبين تعقب سقطات أستاذ التاريخ الاسلامي المتمركس وكشفها للناس(١) .

الحاجز الجغرافي :

وحتى إذا تبرأ الباحث من دواعي العصبية ، ومن تأثير المعتقد الخاص ، تبقى أمام الناظر في تاريخ الإسلام من غير أهله مشكلة يطلق عليها الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة اسم (الشباك) ، ويقصد بها الموقع الجغرافي الخاص الذي ينظر منه

---

(١) راجع . د . محمود اسماعيل الحركات السرية في الاسلام ، روز اليوسف مايو ١٩٧٣ .وقد جمع فيه مقالاته وردودنا عليه .

إلى التاريخ ، ويقول في نقده كتابات المؤرخ الشهير فيشر كما نقل عنه صاحب الأضـواء« . . إن المؤلف يطل (يقصد فيشر) من (شباك) أوربي واسع عظيم الارتفاع وإنه استطاع أن يصور المنظور التاريخي الأوربي الغربي في العصور الوسطى أعدل تصوير، لكنه عالج ظهور الإسلام وتكوين الدولة الإسلامية الأولى ـ مثلاً ـ على مقياس غير مقياس معالجته الدولة الجرمانية . واجتزأ من تاريخ الدولة البيزنطية المديد وآثاره البعيدة في الشرق والغرب موقفها العدائي من الصليبيين وهم في طريقهم من مختلف البلاد الأوربية إلى الشام ، واعتبر تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى تاريخاً لحركة المقاومة المسيحية ـ وهي الحركة التي أدت إلى إخراج المسلمين نهائياً من أوربا ، لكن المؤلف أوسع لتاريخ البابوية ، ما استطاع أن يوسع من الصفحات ، ووفر لكل من فرنسا وألمانيا وانجلترا ما يكفل بيان أهمياتها في تلك العصور . . . إن المؤرخ لا يستطيع أن يتجرد من حصيلته الثقافية ووصفه الجغرافي ، أو يتقمص بديلاً أجنبياً عن أحدهما أو كليهما ـ مهما طرأ عليه من طارىء عابر وقتا ما ـ لأن ثقافته وجغرافيته تتكون منها نافذته أي شباكه الذي يستنشق منه المعنويات والماديات من أصناف المعرفة والحياة اليومية »[1] . .

لكل هذه الأسباب نعتقد أن الباحث الغربي حتى لو أراد لا يستطيع أن يفهم التاريخ الإسلامي على وجهه الصحيح لأن التجرد المطلوب منه مسألة ليست في إمكانه . .

٢ ـ الخبرة باللغة العربية :

لقد بذل المستشرقون جهدهم في دراسة اللغة العربية ، وأنشأوا لذلك كثيرا من المراكز المتخصصة في بحث اللغة العربية وآدابها ، ولا ننكر أن

---

(١) أضواء ص ١٧٥ / ١٧٦.

بعضا منهم كان له اسهام مشكور في طبع كثير من أمهات التراث العربي ، لكن اللغة العربية بحكم تكوينها الخاص أشبه ما تكون بالصدفة التي تحمي لؤلؤتها الثمينة من تطفل الأعداء ، يظل تركيب العربية المعجز والخاص مهما حاول الباحث الغريب عنها من غير أبنائها لغزا يستعصى على الفهم ، والتذوق ، أذكر مستشرقا فرنسيا محترما عشق اللغة العربية وآدابها عشقا حقيقيا وله كتاب جيد في تاريخ اللغة العربية وهو المسيو (بلاشير)، ألقى محاضرة في جامعة الأزهر قمت بطبعها أثناء وجودي بالجامعة بحكم عملي في إدارة نشر التراث ، لقد أثر في نفسي هذا المستشرق العاشق ، وهو يتعثر في نطقه بالعربية رغم أنه قد عكف على دراستها وتدريسها في فرنسا أكثر من ربع قرن ، سمعته وهو يعتذر عن ركته وتعثره ، أثناء حديثه عن المزايا التي تفردت بها العربية وامتازت بها على جميع اللغات . . ذلك شأن العاشق فما بالك بالحاقد الكاره المتحامل . . ؟ لقد كتب كثير من هؤلاء الحاقدين عن عجز العربية وضعفها عن استيعاب المصطلحات العلمية ، وعن تفككها ، وبالجملة فإن اللغة العربية كما يقولون لغة (تركيبية)، وليست لغة (تحليلية) مثل اللغات الآرية ، وكما يقول رينان : « إنه ينقص الساميين عامة إحدى درجات التراكيب التي نعتبرها ضرورية للتعبير عن الفكر تعبيرا كاملا ، فآخر ما يعنون به ضم الكلمات في جملة واحدة ، وهم لا يفكرون في ضم الجمل نفسها بعضها إلى بعض فأسلوبهم كما يقول (أرسطو طاليس) هو الأسلوب « اللانهائي » الذي يتبع طريقة الجزئيات المتراكمة التي تتعارض والجملة الكاملة في تجانسها المعروفة في اليونانية واللاتينية ، فالشيء المفضل عندهم في البلاغة ، كما هو الحال في المعمار ، هو الزخرفة العربية المعروفة » . . إن الأسلوب الساميّ ينقصه نقصا تاما الرؤية عن بعد ، ذلك بأن اللغات السامية مبسوطة بسطاً ، ولا تأخير فيها ولا تقديم ، فهي لا تعرف من طرائق التعبير غير قرن الأفكار بعضها ببعض . . وارتباط الجمل

بعضها ببعض لا يكون في العربية إلا بطريقة واحدة هي الربط بحرف الواو أو حرف الفاء يلصق بالكلمة الأولى من الجملة التالية . . »[1] . .] هل تنبهت الآن إلى المصدر الذي دخلت منه شبهة عجز المسلمين عن التفكير المنطقي ، وأنهم لا بد أن يكونوا ممن استعاروا هذا التفكير من اليونان أصحاب اللغة التحليلية ، والفكر التحليلي]؟! ذلك لأن عجز التفكير العربي كما يقول جوتييه عن التسلسل الفكري ، والتحليل والذي يتضح في لغتهم هو السبب في عجزهم عن التفكير المنطقي (٢).

ربما تحسبني مبالغا أو متجنيا ، ولكني أنقل لك وأنا حزين جد حزين رأي تلاميذ المستشرقين في هذه المسألة، وسبب حزني أنهم في هذه المرة من أساتذة اللغة العربية . يقول أحمد أمين في كتابه فجر الاسلام مصورا ـ ويا للحسرة ـ عجز العرب عن التفكير المنطقي ـ وهو ـ ويا للمصيبة ـ عجز أبدي لأنه من خصائصهم اللازمة لهم ـ كما قال رينان وهو يردد هنا قولهم ـ باعتبارهم من الجنس السامي ـ يقول : « إن طبيعة العقل العربي لا تنظر نظرة شاملة للكون محللة لأسسه وعوارضه كما هو شأن العقل اليوناني (تنبه وافهم) بل يقف فيها على مواطن خاصة تثير عجبه ، فهو إذا وقف أمام شجرة لا ينظر إليها من حيث هي كل ، وإنما يستوقف نظره شيء خاص فيها كاستواء ساقها أو جمال أغصانها . هذه الخاصية في العقل العربي هي التي جعلته يهتم في أدبه بالجزئيات ، ونتج عن ذلك أن قصر نفس الشاعر فلم يستطع أن يأتي بالقصائد القصصية (كالإلياذة والأوديسا)، ولكن عنايتهم بالجزء جعلتهم ينفذون إلى باطنه فيأتون بالمعاني البديعة الدقيقة التي تتصل به كما جعلتهم يتعاورون على الشيء الواحد. فيأتون فيه بالمعاني المختلفة من وجوه مختلفة، فامتلأ أدبهم بالحكم القصار الرائعة

٢،١ ليون جوتييه ، ترجمة د . محمد يوسف موسى . المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية ص ٧٧.

فكل جملة معان كثيرة تركزت في حبة ، أو بخار منتشر تجمع في قطرة، ومعنى هذا أن العقل العربي عقل تركيبي لا تحليلي ، وأنه يعنى بالجزئيات ولا يحفل بالكل ، فظهرت نتائج ذلك في أدبه فإذا به يقف أمام الجزئيات يركبها دون أن يحللها ، فوجد أدب المثل ولم توجد القصة ، والفرق بين التركيب والتحليل يتضح من هذين النوعين من الأنواع الأدبية فالمعنى الكبير يمكن تركيزه من المثل الذي لا يتجاوز السطر ، وهذا المعنى نفسه يمكن أن يصور في قصة طويلة . في المثل تحدث عملية تجريد وتركيب ، وفي القصة على العكس يحدث تشخيص وتحليل وتفصيل . . . »؟[1] وهذا أستاذ آخر للغة العربية يأتي ليبني على كلام أحمد أمين الذي نقله عن رينان هرما ضخما من الأوهام النقدية أصدرها في كتاب اسمه الأسس الجمالية في النقد العربي ، ذلك هو الدكتور عز الدين اسماعيل ، وفي هذا الكتاب يفسر جميع الظواهر الجمالية في الأدب العربي على أساس من نظرية البيئة التي رفضها الفكرالغربي منذ بداية هذا القرن واعتبرها من تاريخ الأخطاء المنهجية في التفسير الغربي للتاريخ الذي كان يفسر التاريخ من خلال عامل واحد ، فماذا يقول لنا د . عز الدين . . ؟

يقول : « ولسنا نريد هنا أن ندخل في دراسة تفصيلية لطبيعة اللغة العربية ، ونكتفي بأن نذكر أن خبرتنا بها (هكذا !!)، والمفهومات التي سادت بين علمائها فضلا عن الناطقين بها (هكذا !!) كلها تؤكد أن طبيعة هذه اللغة طبيعة تركيبية وليست تحليلية . . »[2] ثم يمضي في طريق الأوهام على أساس من هذه المقولة الباطلة الظالمة التي ما قال بها أحد قط من علمائها المعتبرين أو أبنائها الواعين ، وإنما قال بها فقط هو وأمثاله من تلاميذ

---

(١) فجر الاسلام ص ٤١ .

(٢) د . عز الدين اسماعيل ، الأسس الجمالية ص ٣٣٥ /٣٣٧ .

المستشرقين المضللين . .

أخشى عليك أيها القارىء أن تتأثر بهذه الأباطيل التي تروى كالأساطير من أساتذة لهم وزنهم واحترامهم في مجال الدراسات النقدية العلمية والأدبية ، وأسارع فأقول لك إن هذا الوهم إنما دخل على هذه العقول من عجزهم عن النفاذ إلى سر هذا التركيب البديع الفريد الذي تميزت به اللغة العربية على جميع لغات الأرض ، واستحقت بسببه ، وبأسباب أخرى أن تكون مستودع وحي الله الذي تعجز كل عقول الفلاسفة التحليليين في الشرق والغرب عن أن تأتي بآية واحدة منه ، هذا السر البديع في العربية هو سر الإيجاز ، الذي جاء في القرآن الكـريم على مستوى أعجز بلغاء العرب جميعا . . ! ولا أستطيع أن أحدثك هنا عن خصائص هذا التركيب البديع المتمثل في الإيجاز ، وإنما أريد أن تعرف التسلسل والترابط والتحليل يأتي في العربية على أسلوب آخر غير أسلوب أرسطو والإغريق ولغتهم ،من هنا كان من حق علماء المسلمين أن يقولوا إن المنطق اليوناني لا يصلح في مجال العلوم الاسلامية والتفكير الإسلامي ، وكان من حقهم أن يعتمدوا في ذلك كله على منطقهم الخاص المستمد من خصائص اللغة العربية فالإيجاز في العربية لا يكشف عن عجز عن الربط والتحليل والتسلسل ، وإنما يكشف عن أسلوب خاص في ذلك هو أسلوب(الإختزال) الذي يعتمد على ما يمكن أن نسميه (المسافة الزمنية) يقول عبد القاهر الجرجاني في الحذف في كتابه دلائل الاعجاز « هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة (تأمل هذه العبارة الدقيقة !!)، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن (تأمل !!)، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر ؟ وتدفعها حتى تنظر »[1]، ما تفسير هذا الكلام الجليل

---

(١) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الاعجاز ص ١١١ /١١٢ .

الخطير . . ؟!. تفسيره يا عزيزي القارىء هو أن البديل عن المحذوف في العربية ليس فراغا ، ولا عجزا وإنما ما أسميه (المسافة الزمنية) جاء ذلك في مقال كتبته ردا على المرحوم أمين الخولي في مجلة الأدب قلت فيه « المسافة الزمنية يعبر عنها في اللغة العربية بالمحذوف ، وقد يكون هذا المحذوف حرفا أو كلمة أو جملة أو أكثر . . ، والحذف يعني أن إيحاء المسافة هنا أهم من إيحاء الكلمة ، وإلا لكان الحذف في العربية ضربا من العبث ، فالمسافة الزمنية إذن هي البديل الذي حل محل الكلمة ، فالعربي يستغني بقدرة خيالية فائقة عن الكلام المحذوف في لمحة . فحذف الكلام في العربية لا يعني أنه غير موجود ، وإنما يعني أنه مستغنى عنه بقدرة في عقل المتلقي يستطيع بها أن يتصور ذلك الكلام المحذوف على وجهه الصحيح »[1]، وحتى لا يكون كلامي نفسه ضربا من الألغاز أضرب له مثلا على ذلك قوله تعالى : ﴿ وقالت لأخته قصيه . . فبصرت به عن جنب . . وهم لا يشعرون ﴾[2] ففي هذه الآية قصة كاملة أضرب القرآن الكريم عن ذكرها اكتفاء بما ورد في أول الكلام ، اعتمادا على قدرة المتلقي العربي على استكمال المحذوف بخياله، ذلك، والكلام هو . . ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴾[3]،فالعربي المتلقي يفهم في ضوء هذا الكلام من قوله تعالى : ﴿ وقالت لأخته قصيه . . فبصرت به عن جنب . . ﴾ أن أخت موسى سارت في الطريق تتحسس الأخبار ، ولا شك أنه شاع في الناس خبر الرضيع الذي التقطه آل فرعون من النهر ، فسارت إلى قصر

---

(١) رشاد محمد خليل ، مجلة الأدب ، عدد (٢) ١٩٥٨ .

(٣،٢) سورة القصص : ٦ : ١١ .

فرعون ، ويبدو أن دخول القصر لم يكن ممنوعا ، أو أنها احتالت حتى دخلت إلى حيث يوجد الغلام ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون بوجودها ، فالكلام إذن موجود ، وإنما استغني عنه اعتمادا على قدرة المتلقي العربي على وضع الكلام المحذوف الصحيح في موضعه دون اخلال بالمعنى أو إفساد للترابط أو التسلسل . . فالقول إذن بأن اللغة العربية ذات طبيعة تركيبية أو أن الفكر العربي تركيبي لا تحليلي إنما هو نتيجة عجز في عقول الناقدين أنفسهم عن إدراك أساليب العرب في الحذف ، والترابط والتسلسل ، لا نتيجة عجز العرب أو العربية عن ذلك .

وأضرب لك الآن مثلا على أهمية الخبرة بالأساليب العربية في قراءة التاريخ الاسلامي بالحديث المعروف عن افتراق المسلمين إلى ثلاث وسبعين فرقة، فقد روي بطرق كثيرة عن النبي ﷺ ، منها ما رواه أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، أنه قام فقال : ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، اثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة وهي الجماعة ، وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجاري بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه » . . .

إن من يقرأ هذا الحديث دون خبرة بالأساليب العربية يتصور أنه لا يمكن أن تقوم للمسلمين وحدة أبداً ، فما هذه الوحدة التي يمكن أن تقوم بين أمة تنقسم إلى ثلاث وسبعين قسم . . ؟ ،والذي يتتبع تاريخ الأمة الاسلامية سيجد أنه قد ظهرت فيها فرق ومذاهب قد تصل من ناحية العدد إلى أكثر من ثلاث وسبعين ، ولكن هل يعني ذلك أن هذه الأمة لم تقم لها وحدة ؟ وأنها قد تفرقت بعد رسول الله ﷺ . . ؟ ،لكي نتبين حقيقة ذلك علينا أن نعرف الفرق التي تكلم عليها المؤرخون للفرق في الإسلام ، يقول ابن الجوزي في كتابه تلبيس ابليس « فإن قيل وهل هذه الفرق معروفة ، فالجواب إنا نعرف

الافتراق وأصول الفرق ، وأن كل طائفة من الفرق قد انقسمت إلى فرق وإن لم نحظ بأسماء تلك الفرق ومذاهبها ، وقد ظهر لنا من أصول الفرق : الحرورية(الخوارج)، والقدرية (ومنها المعتزلة)، والجهمية ، والمرجئة ، والرافضة والجبرية » ثم هذه الفرق قد انقسمت إلى فرق يصل عددها إلى اثنتين وسبعين فرقة(١). وعلى الباحث أن يسأل ما قيمة هذه الفرق وما هو وزنها التاريخي ، إن معظم هذه الفرق لا يزيد أن يكون بدعة شخصية لم تتعد زمانها ومكانها ، وقد لا تتعدى صاحبها ، بل إن معظمها لا يكاد يتعدى بلادا بعينها أو مدنا بعينها ، ولقد ذابت معظم هذه الفرق أو ماتت بموت أصحابها ، ولم يبق لها من ذكر في التاريخ سوى ذكرها في كتب الفرق ، بل أين فرقة المعتزلة التي شغلت الناس في أيام المأمون ؟ وأين الخوارج الذين شغلوا الناس في عصر بني أمية . . ؟. . إن الفرقة التي استمرت وصمدت وبقيت في التاريخ هي جماعة المسلمين المتمثلة في مذهب أهل السنة والجماعة ، وهم الجماعة الغالبة الآن في العالم الاسلامي باستثناء الشيعة الاثنا عشرية في العراق وايران ، وباستثناء الاسماعيلية وهي فرقة خارجة على الإسلام بالاجماع . . .

إن حديث الفرق ينبه المسلمين إلى سنة الله في الاجتماع الإنساني ، وهي السنة التي تقوم على الصراع الدائم والدائب بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، إن الرسول لا يعد المسلمين بابطال هذا الصراع ، وإنما ينبههم إلى استمراره في التاريخ الاسلامي بأشد مما كان عليه في الأمم السابقة ، وينبههم إلى أن ذلك الصراع لن يكون خطرا عليهم ما داموا متمسكين بالكتاب والسنة ، حريصين على جماعة المسلمين لأن يد الله مع هذه الجماعة ، والشيطان مع من يخالف الجماعة ، كما جاء في حديث عرفجة .إن

---

(١) تلبيس ابليس ص ١٨ /١٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٦ .

وحدة الأمة الاسلامية التي قامت على الكتاب والسنة أشبه ما تكون بالنهر الجاري الواسع العريض ، والذي يستوعب في مسيرته الطويلة المباركة الروافد النازلة إليه من رؤوس الجبال ، وقد تتخلف عن هذا النهر العظيم مستنقعات تتناثر على جانبيه يستقر فيها الماء ويركد فيفسد ويتغير ، لكن ذلك لا يعوق مسيرة النهر ، ولا يحول دون جريانه ، وقد يتعكر النهر في بعض المواضع ولبعض الأسباب ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى صفائه ، وأن يتخلص من عكارته ، وذلك متوقف على جهود المخلصين من المسلمين الفاهمين لدينهم والعاملين به على وجهه الصحيح ، وهم دائما موجودون في كل عصر ، تقوم بهم الوحدة ويستمر بهم النهر العظيم في جريانه ، مصداقا لقوله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك »[1] ومصداقا لقوله ﷺ « مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره »[2] .

إننا لن نفهم هذه الحقائق على وجهها ما لم نكن واعين بأساليب العربية التي نزل على مصطلحها القرآن ، وتكلم بمقتضاه الرسول عليه السلام وسلف هذه الأمة .

٣ ـ العلم الصحيح بالاسلام وعلومه الضرورية :-

تاريخ المسلمين هو تاريخ الإسلام وفهم الإسلام شرط ضروري لفهم تاريخه ، والإسلام عقيدة وشريعة ، وتاريخ الإسلام هو تاريخ التطبيق العملي للإسلام عقيدة وشريعة ، وقياس الصواب والخطأ في دلالة الأخبار لا يمكن أن يأتي من منهج تاريخي لا يقوم على أساس الفهم العميق لمقاصد الإسلام عقيدة وشريعة ، وتقويم تصرفات المسلمين السياسية والاقتصادية

(١) الحديث بروايات متعددة وألفاظ مختلفة في : البخاري ، ومسلم ، وأبي داود والترمذي وابن ماجه ومسند أحمد ، هامش المدخل إلى الثقافة الاسلامية د . محمد رشاد سالم ص ١٥٩ .

(٢) الحديث في: الترمذي (كتاب الأدب) ، مسند أحمد ٣ /١٣ ، ١٤٣ ، ٤ / ٣١٩ . المرجع السابق .

والاجتماعية لا يأتي من منطلقات غربية أو شرقية ، ولا يأتي من معايير غربية أو شرقية ، وإنما يأتي من منطلقات ومعايير اسلامية خالصة ، وإنما جاء الخطأ في فهم هذا التاريخ ، كما جاء الخطأ في الحكم عليه من استخدام هذه المعايير الأجنبية التي تلائم الظروف التاريخية لأصحابها ، وليس هنا مجال نقدها أو الحكم على صوابها وخطئها ، وإنما نقول فقط إن الفكرين « الليبرالي » التحرري والماركسي ، وهما الفكران الأساسيان اللذان يتحكمان اليوم في صياغة المعايير عند المؤرخين المعاصرين لهما نظم خاصة ، وهي ليست نظما إنسانية عامة ، وقد قامت هذه النظم على أساس من تحولات تاريخية خاصة في التاريخ الغربي ، وأقول مرة أخرى : إني لست في مجال تقويم هذه النظم ، والحكم عليها ، وإنما أنبه فقط إلى أنه من الخطأ أن تتخذ هذه النظم مقياسا تقاس به تصرفات المسلمين السياسية والاقتصادية والإجتماعية في تاريخهم ، إنما تقاس تصرفات المسلمين بشريعة الإسلام ، وهي الأساس الذي جرى عليه عملهم ، وجرت على أساسه محاكمة تصرفاتهم حاكمين ومحكومين ، ولقد ناقش الفقهاء مناقشة مستفيضة جميع التصرفات التي جرت من المسلمين حكاما ومحكومين في ضوء الشريعة الاسلامية ، وعلى من يريد أن يناقش مدى سلامة تصرفات المسلمين في شئون السياسة والحكم والمال أن يرجع إلى كتب الفقه ولا يكتفي بكتب الأخبار غير الموثقة ، وقد سبق أن قلنا رأينا في هذه الأخبار ، ونقلنا رأي علماء المسلمين المشهورين بالانصاف فيها ، ولنذكر مثلا واحدا على مدى خطأ الأحكام التي تصدر على تصرفات الحكام المسلمين في تاريخ المسلمين من خلال كتب الأخبار ثم تفسيرها في ضوء المذاهب السياسية العصرية . وذلك في قضية هامة وأساسية هي قضية الإمامة أو الخلافة : فلقد كان من شروط الخلافة الثابتة بالنص : النسب القرشي ، استنادا إلى قوله ﷺ « قدموا قريشا ولا تقدموها »(١) . واستنادا إلى

---

(١) أورده الماوردي في الأحكام السلطانية ص ٦ .

الأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري عن أبي هريرة ومعاوية رضي الله عنهما ، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :«الناس تبع لقريش في هذا الشأن ، مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم . والناس معادن خيارهم في الجاهلية ، خيارهم في الاسلام إذا فقهوا ، تجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الشأن حتى يقع فيه »، وعن معاوية رضي الله عنه وقد بلغه أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يحدث أنه سيكون ملك من قحطان ، فغضب معاوية فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :«أما بعد فإنه بلغني أن رجالا منكم يتحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ ، فأولئك جهالكم فإياكم والأماني التي تضل أهلها فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين ». وبناء عليه أجمع علماء المسلمين على شرط النسب إلى قريش في الإمامة . قال الماوردي : النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه ، ولا اعتبار بضرار حين شذ فجوزها في جميع الناس ، لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه احتج يوم السقيفة على الأنصار من دفعهم عن الخلافة، لما بايعوا سعد بن عبادة عليها بقول النبي ﷺ « الأئمة من قريش » فأقلعوا عن التفرد بها ورجعوا عن المشاركة فيها حين قالوا منا أمير ومنكم أمير تسليما لروايته وتصديقا لخبره ورضوا بقوله : نحن الأمراء وأنتم الوزراء (١).

لو نظر المؤرخ دون وعي منه بسنن الله في الاجتماع الإنساني إلى هذه النصوص الصريحة في حصر الإمامة في قريش متأثرا بمفاهيم الثورة الفرنسية عن حكم الشعب لنفسه أو الحكم الديمقراطي الذي يرد الأمر إلى الأمة كلها فإما أن ينكر هذه النصوص وهي صحيحة صريحة لا تقبل الرد ، وإنما يتصور ـ ونعوذ بالله من ذلك ـ أن الله ورسوله قد جارا على المسلمين حين فرضا

(١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ص ٦ .

عليهما ذلك الشرط في الإمامة ، والله ورسوله أعدل بالمسلمين وأبر بهم وأرحم من كل الفلاسفة السياسيين ، ولقد كان حصر الإمامة في قريش من أوسع أبواب هذه الرحمة ، ذلك أن العرب لم تعتد في تاريخها أن تخضع لحاكم ، يجمع أمرها ، ويفرض عليها الطاعة بقوة السلطان ، وما كانت العرب لتقبل في جاهلية أو إسلام أن يدين بعضها لبعض أنفة منها ، أما بالنسبة لقريش فإن الأمر يختلف ، وقد صدق أبو بكر رضي الله عنه ، وهو أعلم الناس بالعرب ـ بعد رسول الله ـ حين قال وهو يحاور الأنصار في اجتماع السقيفة : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش ، ذلك أن قريشا قد اكتسبت في الجاهلية محبة ومهابة واحتراما شديدا في نفوس العرب ، وذلك أن قريشا في الجاهلية قد تسلمت زمام التجارة العالمية بعد حمير ، ونضجت لهم عن ذلك الطريق خبرة واسعة بشئون المال والتجارة والتسويق وأساليب التعامل ، وتوثقت لهم علاقات على أوسع نطاق مع كافة شعوب العالم ، واتسعت بفضل ذلك معرفتهم بهذه الشعوب وعاداتها وآدابها ولغاتها وأخلاقها ، مما أعطاهم سعة في معلوماتهم ، ودماثة في أخلاقهم ، وصقلا لإراداتهم ، عرف لهم جميع العرب قدره ، ودانوا لفضله وجعلوا لهم الإمامة طائعين ، وقد جمع لهم الله تعالى إلى ذلك شرف النسب إلى إسماعيل فهم كما قال رسول الله ﷺ أشرف العرب نسبا ، والعرب بانتسابها إلى إسماعيل تجد في قريبتنا أصفاها نسبا إليه ، كما جمع الله لهم إلى ذلك جوار البيت ، وأفاض عليهم من حرمته مما مكن لهم في قلوب العرب جميعا . روى السيوطي في المزهر عن إسماعيل بن أبي عبيد الله أنه قال : « أجمع علماؤ نا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمدا ﷺ، فجعل قريشا قطّان حرمه ، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة

للحج ، ويتحاكمون إلى قريش في دارهم ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب »[1].

ولما كان من أهداف الإسلام الأولى بناءالوحدة الاسلامية ، وجمع كلمة الأمة ، في إطار سنن الله في الإجتماع والناس فلقد كان جمع الأمة على قريش التي يدين لها العرب بالفضل والطاعة المبنية على الحب والاحترام لا على القهر ، ولما كان المسلمون جميعا يدينون لقريش بهذا الفضل كما تدين لها العرب ، ويدينون لها بناء على ذلك بالطاعة عن طواعية ورضى من غير شعور بالمذلة أو القهر بسبب حبهم لرسول الله وأهل بيته وعشيرته ، فلقد كان جمع العرب والمسلمين على قريش من أجل السياسات وأعظمها وأبرها بهذه الأمة ، وتاريخ الأمة الإسلامية كله شاهد على ما كان لهذا الإجتماع على قريش من الفضل في توحيد كلمة المسلمين ، وجمع شملهم ، وحتى في فترات التفكك السياسي ما كانت الأمة المسلمة ترضى بأن تجتمع على أحد من الناس إلا على قرشي ، حتى أن الولاة في فترة ضعف الدولة العباسية كانوا جد حريصين مع استقلالهم بالأمر على أن يظهروا للناس بمظهر الموالين للخلافة العباسية ، وحين تغيرت الأحوال وانتقلت عصبية الملك إلى الترك على يد العثمانيين ، وجد العثمانيون أنفسهم مضطرين إلى الحصول على موافقة الخليفة العباسي الذي كان مقيما في مصر لتثبيت سلطانهم .

كان حصر الإمامة في قريش إذن أهم عامل في تثبيت سلطان الدولة الاسلامية ، وذلك عن طريق حصر الأمر في قوم يدين لهم المسلمون بالفضل من جانب ، وعن طريق حصر النزاع في دائرة ضيقة من جانب آخر ذلك أن حصر النزاع بين الأمويين والهاشميين وهم عصبية قريش كانت شروره أهون

---

(١) السيوطي ، المزهر جـ ١ ص ٢٠٩ / ٢١٠ .

كثيرا من اطلاق الصراع على مداه بين القبائل والعناصر الأمر الذي كان يمكن لو حدث أن يعصف بالدولة الاسلامية وبوحدة المسلمين وبالاسلام . . .

إن من يفهم ذلك يفهم أن التنافس بين بني هاشم وبين بني أمية بعد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كان تنافسا بين فرعين كريمين انحصرت فيهما عصبية قريش ، وكان كلا منهما يرى نفسه أهلا للأمر ، وقد صور هذا المعنى بدقة ابن عباس الهاشمي القرشي رضي الله عنه حينما بلغه نعي معاوية وذلك في قوله : « جبل تزعزع . . ثم مال بكلكله . . أما والله ما كان كمن كان قبله ، ولما يكن بعده مثله . اللهم أنت أوسع لمعاوية منا ومن بني عمنا وما أغراهم بنا (يعني بني أمية) إلا أنهم لا يجدون مثلنا ، وما أغرانا بهم إلا أنا لا نجد مثلهم . . ووالله إن ابنه لخير أهله ، أعد طعامك يا غلام . . ثم أقبل علينا فقال : مهلا معشر قريش ، أن تقولوا عن موت معاوية ذهب جد بني معاوية وانقطع ملكهم . . ذهب لعمر الله جدهم وبقي ملكهم . . الزموا حجالكم وأعطوا بيعتكم »[1] .

إن ذلك لا يعني أن المسلمين قد تخلوا بمقتضى هذا الشرط عن مراعاة بقية الشروط الواجب توفرها في الإمامة وهي : العدالة ، والعلم ، وسلامة الحواس ، وسلامة الأعضاء ، والرأي ، والشجاعة والنجدة ، وحتى حينما كان الاستخلاف يتم بولاية العهد على زمن بني أمية وبني العباس لم يتخلَّ الفقهاء عن اجماعهم على ضرورة مراعاة تلك الشروط. يقول د . فتحي عثمان في الأضواء « فالأساس في ولي العهد عند فقهاء المسلمين ، انطباق شروط الخلافة عليه ، لا مجرد انتمائه إلى أسرة أو شخص . . فالتوارث وحده لا يكسب حق الخلافة لذلك قال ابن حزم في كتابه (الفصل) « ولا

---

(١) أضواء ص ٢٠٠ / ٢٠١ .

خلاف بين أحد من المسلمين في أنه لا يجوز التوارث فيها ، ولا في أنها لا تجوز لمن لم يبلغ ـ حاشا الروافض ، فإنهم أجازوا كلا الأمرين » .

وابن حزم الذي يقول هذا عن التوارث ، هو الذي يؤيد ولاية العهد إن روعيت فيها شروط الخلافة ، ويقول : إن أفضل وجوه عقد الإمامة وأصحها أن يعهد الإمام قبل وفاته إلى إنسان يختاره إماما بعده ، وسواء أفعل ذلك في صحته أم في مرضه عند حضور الوفاة ، إذ لا نص ولا إجماع على المنع . . . كما فعل رسول الله بأبي بكر ، وكما فعل أبو بكر بعمر ، وكما فعل سليمان بن عبد الملك بعمر بن عبد العزيز ، وهذا الوجه هو الذي نختاره ونكره غيره لما فيه من إتصال الإمام وانتظام أمر الاسلام وأهله ورفع ما يتخوف من الاختلاف والشغب مما يتوقع في غيره مع بقاء الأمة فوضى ومن انتشار الأمر وارتقاع النفوس وحدوث الأطماع »[٢] .

وخلاصة القول ان النظر في تاريخ المسلمين يقتضي من صاحبه فقها في الدين يمكنه من فهم مجريات الأمور على وجهها الشرعي الصحيح .

٤ ـ المعرفة الصحيحة بتاريخ العرب وحياتهم قبل نزول القرآن :-

ومن الضروري أن أنبه إلى أنه ليس من السهل التوصل إلى المعرفة الصحيحة بتاريخ العرب وحياتهم قبل نزول القرآن ، وذلك لأن هناك عوامل كثيرة تضافرت على اسدال أستار كثيفة على هذا التاريخ حجبت حقيقته عن أعين الدارسين المختصين أنفسهم ، حتى أصبح كل دارس يتمثل هذه الحقيقة كما تتراءى له ، فلم تعد هناك حقيقة واحدة مجمع عليها في تاريخ هذه الأمة وإنما أصبحت هناك ظنون يناقض بعضها بعضا ، ويكذب بعضها بعضا ، ولا أظن أن أمة من الأمم اختلفت الآراء إلى درجة التناقض في فهم حقيقتها مثل الأمة العربية قبل الاسلام .

---

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٩ / ٢١٠ .

أسباب الجهل بتاريخ العرب قبل الاسلام :

يمكن تلخيص هذه الأسباب فيما يلي :

١ ـ عملية تشويه تاريخية حدثت عن عمد في أكثر الأحيان ، وعن جهل في أقلها .

٢ ـ سوء الفهم وذلك بسبب نقص الأخبار ، أو عدم فهمها على وجهها الصحيح ، وبسبب فهم بعض المصطلحات الاسلامية على غير وجهها وهذه المصطلحات مثل : الأمية والجاهلية ، وبسبب تسليط التفسيرات الغربية على هذا التاريخ من قوم ليست لهم دراية سليمة به . . . ولا يتسع المجال هنا لتفصيل القول في هذه المسائل ، وإنما أعرض لها في إيجاز شديد :

١ ـ عملية التشويه :

تعرض تاريخ العرب قبل الإسلام على يد اليهود والشعوبيين من الفرس لتشويه شديد كان الهدف منه تحقير العرب والتقليل من شأنهم لضرب الإسلام من وراء ذلك على أساس أن الإسلام إذا كان قد جاء على يد هؤلاء الجهال الذين لا حظ لهم من علم ولا أدب ولا حضارة ، فلا بد أن يكون هذا الدين الذي جاءوا به مناسبا لأحوالهم المتدنية المنحطة ، ولا يناسب أمما لها السبق في العلم والحضارة والرقي ، لذلك رموا العرب قبل الإسلام بكل نقيصة فقالوا عنهم كما جاء في العقد الفريد : « . . . لم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ، ويضم قواصيها ، ويقمع ظالمها ، وينهى سفيهها ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ، ولا أثر في فلسفة ، إلا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعارا عجيبة قائمة الوزن والعروض ، فما الذي تفخر به العرب على العجم ؟ فإنما هي كالذئاب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضا ، ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون في

حلق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل . . »[1]

ثم جاءت الصليبية الحديثة لتكمل هذا التشويه ، وكان الهدف الذي يسعون إليه هو إيجاد تبرير باسم العلم لتصورات قائمة مستقرة ومسبقة ، كان المستشرقون يبحثون عن تبرير علمي للصورة التي استقرت في أذهانهم عن المسلمين البرابرة المتوحشين ، وقد وجدوا هذا التبرير في تصوير العرب كمجموعة من البدو السذج المتوحشين الذين جمعتهم الصدفة العمياء تحت قيادة زعيم همجي متحمس (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) نجح بفضل ظروف تاريخية مؤاتية في اكتساح العالم المتحضر في عصره !!

٢ ـ سوء الفهم :

وقد ساعد على تثبيت هذه الصورة القاتمة عن العرب قبل الإسلام الحكم القاسي الذي أصدره ابن خلدون على العرب متأثرا بذلك بحالة الأعراب الذين شاهدهم في فترة من فترات الانحطاط فسدت فيها أحوال العرب وخاصة البدو منهم ، وانحلت في كثير منهم عرى الاسلام وسلائق العروبة ، وأصابتهم العجمة فأفسدت عليهم عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم ، فأصبحوا مسخا مشوها ، هو ذلك المسخ الذي عاينه ابن خلدون وكان له أثره العميق في تكوين نظرته الجائرة عن العرب ككل . لقد أدى سوء فهم ابن خلدون لحالة العرب قبل الاسلام إلى أن تداول كثيرون بعده هذا التفسير المبني على سوء الفهم وساعد على ذلك عوامل كثيرة أهمها :

أ ـ نقص الأخبار :

ذلك أن الأخبار التاريخية التي تتعلق بالعرب وخاصة عرب الحجاز ونجد اعتمد نقلها على الرواية الشفهية التي تعرضت للتحريف بسبب النسيان ، ذلك أن تاريخ العرب وهو أقدم تاريخ بشري اتصل تواتره في

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٣١٩ .

مكان واحد على الأرض لم يدون قبل الإسلام ، وحفظ تاريخ بهذا الطول عن طريق الرواية وحدها أمر مستحيل ، لذا ضاع معظم تاريخ العرب ، وخاصة في الحجاز ونجد موطن العرب المستعربة من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وهم الذين نزل فيهم الكتاب . من أجل ذلك تخبط المؤ رخون قديما وحديثا في فهم الحياة العربية ، وفي تقديرها التقدير السليم وذلك لأن فهم التاريخ من خلال أخبار قليلة مضطربة مشوهة ناقصة لا بد وأن ينتج عنه فهم مضطرب ومشوه وناقص للتاريخ .

ب ـ سوء فهم الأخبار :

يضاف إلى نقص الأخبار سوء الفهم لما بقي منها ، ذلك أن من أخطر المزالق التي تعرض لها الذين أرخوا لهذه الفترة هو عجزهم أحيانا عن فهم الخبر بسبب الغفلة عن دلالة الكلام على مقتضى الاصطلاح العربي ، وبسبب اخراج الخبر أو النص أو الواقعة من سياقها التاريخي .

جـ ـ سوء فهم المصطلحات الاسلامية :

ومما ساعد على سوء الفهم عدم فهم بعض المصطلحات التي أطلقت على العرب وأهمها : مصطلح الأمية ، ومصطلح الجاهلية .

مصطلح الأمية :

لقد فهم مصطلح الأمية على أنه يعني الجهل عموما ومن هنا أطلق اليوم على برامج تعليم الكبار خطأ اسم (برامج محو الأمية)، ذلك أن الأمية وإن كانت تعني في بعض معانيها عدم المعرفة بالكتابة ، فإنها لا تعني عدم العلم ، لأن العلم لم يكن متوقفا على الكتابة وإنما كانت له مصادر أخرى ، وليس هنا بيان حقيقة هذا المصطلح ، وإنما أريد فقط أن أنبه إلى أن الروايه كانت وسيلة العلم عند العرب قبل الاسلام ، وظلت الرواية بعد الاسلام رغم شيوع الكتابة وازدهارها المصدر الأساسي للعلم ، ولم يكن يعترف لأي

كتابة بقيمة علمية إلا إذا كانت مستندة إلى الرواية ، فلم تكن الأمية تعني جهل العرب أو افتقارهم إلى العلم ، أو انحطاط مداركهم العقلية ، ذلك أنه كان للعرب قبل الإسلام علم كثير صحيح لا مجال لبيانه هنا ، وكانت لهم عقول راجحة ومدارك عالية ، لم يعتمد في تحصيلها على الكتابة . .

مصطلح الجاهلية :

والمصطلح الآخر الذي أسيء فهمه هو مصطلح الجاهلية ، فلقد شاع في الفكر الاسلامي الحديث اعتبار الجاهلية اعتبارا شرعيا يسوي بينها وبين الكفر كمقابل للاسلام في كل حاله وذلك غير صحيح ، ذلك أن الجاهلية في اصطلاح الإسلام ليست وصفا مقابلا للإسلام في كل حالة ، وإنما هي وصف لحالات نفسية وأفعال يجب أن ينظر إليها في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية كل على حدة ، فإن كانت من أعمال الاعتقاد التي تخرج من الإسلام مثل الشرك وعدم الإيمان باليوم الآخر وما إلى ذلك من أصول الاعتقاد التي لا يصح الإسلام إلا بها فهي كفر يقابل الإسلام ، وإن كانت من أعمال المعاصي التي لا يخرج فعلها من الإسلام فهي ليست كفرا وإنما هي فسوق ، أما إذا قصد بالجاهلية الفترة التاريخية السابقة على الاسلام ، فهي تشمل ما يقابل الإسلام مقابلة الكفر مثل الشرك ، وما يقابل المعاصي في الاسلام ، وتشمل في نفس الوقت ما لا يتعارض مع الاسلام ، بل وتشمل ما يتوافق معه من العرف الصالح مثل : فرض الدية على العاقلة وشرط الكفاءة ، واعتبار العصبية في الولاية والإرث ، فهذا النوع من أعراف العرب قبل الاسلام أخذ به الاسلام ، واعتبره الفقهاء شرعا واجب الاتباع ، كما تشمل على أعمال البر والمعروف التي أقرها الاسلام مثل : اكرام الضيف والجار ، والوفاء والعفة عن المحارم ، والمروءة والنجدة ، وما إلى ذلك ، كما تشتمل على المباح الذي هو الأصل في أعمال الناس والذي لا يتعارض مع أصل مقرر في الإسلام ، ثم هي على جميع معانيها لا تعني

الجهل الذي هو ضد العلم ، ذلك أن الجاهلية ليست من الاصطلاحات التي استحدثها الإسلام بنقلها عن معناها الأصلي مثل الاسلام والكفر والنفاق وما إلى ذلك ، وإنما هي من المصطلحات التي استعملها العرب وأبقاها الإسلام على أصل الإستعمال ، وقد استعمل العرب هذا الاصطلاح في الشعر القديم بمعنى الاسراف والسفه والطيش ومجاوزة الحد ، وهي من المعاني الممقوتة في الجاهلية والإسلام ، يقول امرؤ القيس :

وأصبحت قد عنفت بالجهل أهله ودعت إخوان السفاهة والفِلى[1]

وكما أن الجاهلية ليست وصفا مقابلا للاسلام في كل حالة فإنها ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، وهي كذلك ليست نبذا يدل على الانحطاط والتخلف وعدم الرقي ، والعجز عن التحضر ذلك أن كل أفعال الجاهلية التي ذمها الله في العرب عرفتها كافة الشعوب المتحضرة وما تزال تعرفها على أشنع الصور . .

ء ـ سوء تطبيق المصطلحات الغربية :

كذلك كان من أسباب سوء الفهم تسليط التفسيرات المعتمدة على مصطلحات ذات مفاهيم غربية خاصة مثل : العلم بالمفهوم الغربي ، والفلسفة والمنطق والحضارة . . الخ . وقد سبق أن قلت إن هذه المصطلحات مشحونة بمفاهيم غربية قديمة وحديثة ، وأن اتخاذها مقاييس يقاس بها تاريخ الإسلام ودور المسلمين التاريخي يسيء إلى هذا التاريخ ويفسده ويشوهه، وكذلك الحال بالنسبة للتاريخ العربي قبل الإسلام ، ذلك أن استعمال هذه المصطلحات في تفسير هذا التاريخ قد أدى إلى اعتبار المرحلة السابقة على نزول القرآن من تاريخ العرب فترة تنتمي الى ما يسمى في المصطلح الغربي (بالبدائية) وقد سبق أن ناقشت خطأ . ذلك ، وبينت

(١) الديوان ص ٣٣٠ .

فساده ، وإن كان يحتاج الى مزيد من التفصيل لا يتسع له هذا المقام . . .

المصادر الصحيحة للتاريخ العربي القديم :

على أن هذا لا يعني أن هذه الفترة التاريخية قد ضاعت إلى الأبد ، بل العكس هو الصحيح ، ذلك أن الله تعالى قد حفظ لنا من تاريخ هذه الفترة ما هو ضروري لفهم الاسلام ، وفهم تاريخه وفهم الظروف الاجتماعية التي تعامل معها . ذلك أن من الأمور التي يجهلها كثير من الناس أن الله تعالى قد حفظ بالقرآن تاريخ العرب الذي هو ضروري لفهم هذا الكتاب وفهم مصطلحه ، فالقرآن نفسه يعتبر مصدراً هاماً جداً لمعرفة حياة العرب وتاريخهم ، كما أن حرص العلماء المسلمين على حفظ اللغة التي يقوم بها القرآن ويفهم عن طريقها قد دفعهم الى حفظ لغة العرب وشعرهم قبل نزول القرآن ، فحفظوا لنا بذلك وثائق تاريخية تعد من أخطر الوثائق التي يمكن ان تعوض لنا نقص الأخبار ، وتعيننا على فهم الحياة العربية فهماً صحيحاً دقيقاً ، لكن هذا النوع من الوثائق لا يستلفت نظر الذين يبحثون عن الأخبار والوثائق التي من نوع خاص مثل النقوش والسجلات وغيرها ، وذلك النوع من الوثائق شبه مفتقد أو معدوم بالنسبة لعرب الحجاز ونجد خاصة ، ذلك أن هؤلاء لم يتركوا خلفهم غير اللغة والشعر، وهذه الوثائق لا تحتاج الى مؤرخ عادي وإنما الى مؤرخ خبير بلغة العرب وشعرهم . وقد يقال إن هذه اللغة وهذا الشعر مطروحان أمام الباحثين في اللغة العربية وآدابها ، وهم لم يجدوا فيها هذه المادة التاريخية المزعومة ، وأقول رداً على ذلك إن الباحثين في اللغة العربية وآدابها في غالبيتهم إنما يبحثون فيها عن اشياء أخرى غير التاريخ إنهم يبحثون فيها كنصوص أدبية أو بلاغية أو نحوية أو صرفية، وتلك مباحث هامة لكنها مباحث لو بحثت على وجه آخر لكشفت عن حقائق تاريخية وعلمية سوف تقلب الصورة تماماً ، ذلك أن في لغة العرب وشعرهم علم كثير غزير يعرض لنا صورة أخرى غير الصورة الباهتة المشوهة

المشوشة التي نعرفها عن العرب ، وليس هنا مجال بسط القول في هذه القضية الخطيرة .

٥ ـ معرفة حالة الأمم الأخرى قبل دخولها في الإسلام : .

بقيت عندنا نقطة أخيرة وهي معرفة حالة الأمم الاخرى قبل دخولها في الإسلام ، ذلك أننا إذا أردنا ان نعرف حقيقة التاريخ الإسلامي ، يجب أن نعرف الدور الحقيقي للإسلام في تحويل الأمم السابقة عن طريق قياس مدى التغير الذي أصاب هذه الأمم بعد الإسلام ، ذلك أن قيمة التغير لا تقاس بما يجب وإنما بما هو ممكن في حدود الظروف والعوامل المؤثرة في التاريخ ، إن دراسة أحوال الأمم السابقة يفسر لنا كثيراً من المسائل الغامضة أو التي أسيء فهمها في التاريخ الإسلامي . . كيف كان الفرس ، وكيف تغيروا وما هي نسبة ذلك ؟ كيف كان الترك ، وكيف تغيروا ، وما هي نسبة ذلك ؟ وكيف كانت أحوال الأمم الأخرى من أقباط وبربر وهنود . . الخ . .

ويجب أن نضع في الإعتبار عند تقدير مدى التغير ودلالته أن الدور المنوط بالإسلام لا يقوم على أساس من الغاء سنن الله العاملة في التاريخ ، ولو أراد الله ذلك لكان ، ولكنا نعلم من فهمنا لكتابه ، ومن حركة التاريخ الإسلامي نفسها أن ذلك ليس من مراده تعالى﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولاً﴾[١] ويجب ان ننبه الى أن مدى التغير يتوقف على نوع التفكير ومدى تغلغل العادات الفكرية والتقاليد الاجتماعية ؛ وعلى مدى انحراف هذه العادات والتقاليد عن خط الفطرة السليمة المستقيمة التي فطر الله الناس عليها كما مر بنا في حديث رسول الله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . . ».

---

(١) الإسراء : ٩٥

الوحدة الإسلامية في ضوء المنهج الإسلامي لتفسير التاريخ :

في ضوء هذا المنهج الخاص لدراسة التاريخ الاسلامي يمكننا أن ننظر في قضية الوحدة الإسلامية وأن نعتبرها الاعتبار الصحيح. . نعم . . إن استخدام المنهج الإسلامي في دراسة حركة التاريخ الإسلامي سوف يقدم لنا صورة مختلفة تماماً عن تلك الصورة القاتمة المقبضة المشوهة التي تقدمها الأخبار المضطربة أو المزيفة،والتي تقدمها لنا التفسيرات المغرضة أو الناقضة. نعم إن هذا المنهج سوف يقدم لنا صورة مضيئة جليلة ، تؤكد أن الإسلام هو أعظم مصحح وموجه لحركة التاريخ الإنساني ، وتؤكد على ان تجاهل دور الإسلام في تاريخ البشرية عامة وتاريخ الأمة الاسلامية خاصة يضع هذا التاريخ تحت رحمة مجموعة من العوامل والظروف العمياء التي لا تهتم بالانسان ولا تحسب لوجوده الخاص في هذا العالم أكثر من كونه عنصراً من عناصر المادة الجامدة والحية التي تخضع لجبرية الظروف والعوامل ؛ كما أن تجاهل دور العوامل المؤثرة في التاريخ والتي لم يقصد الإسلام إلى الغائها وإنما قصد إلى معاونة الإنسان على مواجتها ، وتوجيهه إلى الأسلوب الأمثل للتعامل معها ـ يكلف الناس ما لم يكلفهم به الله ، ولا يلتمس لهم الأعذار ، ولا يقدر لهم الأحوال . .

. . إن الإسلام كما سبق أن قلت في حديثي عن المنهج يمثل العناية الإلهية بالإنسان، ورحمة الله التي تأخذ بيده ، ليواجه الظروف والعوامل ، ويتفاعل معها تفاعلاً مفيداً مثمراً يحقق من خلاله حريته وكرامته وسيادته على الأرض ، ويؤدي دوره المقدور له في عمارتها بالخير والحق والعدل والصلاح .

. . بدأ دور الإسلام مع بداية الإجتماع الإنساني على الأرض ، واستمر في أداء دوره حتى ختمت الرسالات بخاتم الأنبياء محمد ﷺ، واستمر دوره بعد ذلك على يد أمته وسيظل رغم كل ما نشاهده اليوم في

مجتمع المسلمين من مظاهر الانحلال والتفكك، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . .

. . ولقد أدى الإسلام دوره في إعادة صياغة المجتمع الإنساني على اساس الوحدة الإنسانية الجامعة التي تقوم على أساس الأخوة في الله على يد الجيل القرآني الأول الذي رباهُ محمد ﷺ بتوجيه رباني. . خرج هذا الجيل من جزيرة العرب يعيد صياغة التاريخ خارجها ، ويدمر الأوضاع الفاسدة التي أذلت الإنسان واستعبدته لغير الله ، وسلبته حريته وكرامته ، وعطلت فيه قدرته على البناء والتعمير ، خرج يجمع الناس على اختلاف عناصرهم وألوانهم تحت وحدة الإسلام الجامعة . . ولم يكن طريق هذا الجيل طريقاً سهلاً معبداً مفروشاً بالورود ، وإنما كان طريقاً شاقاً مملوءاً بالصعاب والعقبات التي تتمثل في العادات والتقاليد والأفكار والنظم المنحرفة عن هدي الله . ففتح دروبه المسدودة، ومهد مسالكه الوعرة ، وفجر صخوره العنيدة في أروع مسيرة إنسانية من أجل حرية الإنسان وأمنه وسعادته وكرامته ، وانطلق هذا الجيل تحت شعاره التاريخي المشهور « خرجنا لنخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله ، ومن جور الحكام إلى عدل الاسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها» ثـم خلف هذا الجيل التابعون وتابعو التابعين ومن بعدهم من عرب وفرس وترك وغيرهم .

. . نعم نشبت صراعات ، وحدثت فتن ، ووقعت مظالم ، وتشعبت فرق ، لكن المسلمين نجحوا في إقامة وحدة إسلامية حية قوية تحدت العواصف والمحن وذلك بشهادة الواقع الذي لا ينكره إلا من على سمعه وقلبه غشاوة . .

إن الصراع قبلياً كان أو عنصرياً ، والفرق ، والمظالم، والخلافات وغيرها من الجوانب السلبية إنما هي آثار ضرورية لعملية التفاعل الحي

النشط بين الاسلام وبين جماعات إنسانية محكومة بعوامل وظروف تمثل سنن الله في الحياة والناس ، ولقد انتج هذا التفاعل وحدة إنسانية إسلامية جامعة راسخة أرسخ ما تكون الوحدة في وسط بشري غير متجانس في عناصره أو ظروفه .

وإن عظمة الإسلام لا تكمن في تصورنا الساذج لدور الاسلام في بناء حياة مثالية لمجتمع مثالي خالٍ من الصراعات والفتن والانحرافات ، مجتمع (اليوتوبيا) المثالي هذا والذي حلم به الفلاسفة الخياليون ورسموا له الصور المثالية الحالمة ابتداء من المدينة الفاضلة لأفلاطون، ومروراً بعالم حي بن يقظان لابن طفيل الى (يوتوبيا) توماس مور ، وجان جاك روسو، وأخيراً شيوعية كارل ماركس هذا إذا أحسنا الظن بالرجل - ولست ممن يحسنون الظن به - وتصورنا أنه كان يقصد فعلاً الخير للناس . . هذا العالم الحالم الخيالي المثالي الذي تتجرد فيه النفس الإنسانية مما ركب فيها من عجز وضعف وشر وقصور ، والذي تتعطل فيه سنن الله المادية والحية والاجتماعية على مستوى الكون كله . . هذا العالم الذي لا يكدح فيه الإنسان ولا يتعب ليحقق بجهده الخاص في ظل ظروف خاصة ، والمشمول بعناية الله من أجل كماله المقدور له في الدنيا ، ليلقي عليه جزاءه المقدور له في الآخرة ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ الانشقاق : ٦ .

. . هذا العالم لم يكن قط هدف الإسلام ، ولو كان الأمر على هذا النحو لما أخرج الله آدم عليه السلام من الجنة أصلاً ، وما كان أهون على الله أن يجرد الإنسان من قصوره وضعفه وشرور نفسه، وأن يكف عنه شر الظروف والعوامل التي تصادمه ، لو أن الله أراد أن تكون هذه الدنيا هي آخر الشوط .

. . إن هناك عالماً آخر غير هذا العالم سوف يبدل فيه الإنسان خلقاً آخر ، في هذا العالم يبطل الصراع ، وتنعدم الشرور في جنة المؤمنين الذين

كدحوا في دنياهم كدحاً صالحاً حتى لقوا ربهم ، واستحقوا مكانهم في جنة الخلد .

لم يُمن رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى بناء مجتمعهم بالأماني الكاذبة ، ولم يعدهم بمجتمع مثالي، وإنما نبههم إلى الفتن ، ودعاهم الى أن يوطنوا انفسهم على مواجهتها، ففي الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأً أو معاذا فليعذ به»

.. فهو إذن الإعداد النفسي للأمر الصعب الخطير ، الذي يجب ان يوطنوا أنفسهم على خوضه على بصيرة من أمر ربهم ، وأن يواجهوه بعلمهم وإيمانهم وعملهم أو كدحهم حتى يخرجوا منه سالمين غانمين . . .

.. إن هذه الفتن ضرورية لإختبار عزائم الرجال ، ولاستخراج الخير من الشر كما ورد في حديث معاذ رضي الله عنه ؛ وذلك لأن المسلمين سوف يتعاملون مع ظروف اجتماعية تراكمت فيها عادات وتقاليد وأفكار ، واستقرت فيها نظم لـن تستجيب بسهولة . . إن القرآن يؤكد كثيراً على أن المحن والفتن والبلايا هي أمور ضرورية لامتحان عزائم الرجال ، وإيمانهم وصدقهم ،قال تعالى ﴿الم . أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ العنكبوت ، ١/٣ .

. كيف نتوقع أن تدخل أمة بأكملها في الإسلام مثل الأمة العربية في فترة زمنية لا تتجاوز ربع قرن من الزمان ، وفيها العالم والجاهل ، والطيب والخبيث ، وفيها عادات وتقاليد وأعراف ، فيها الصالح والطالح ، ثم لا نريد أن تتكشف من خلال تفاعلها مع الإسلام صور منحرفة تتمثل في

مقاومة الذين لم يستوعبوا حقيقة الإسلام ولم يستطيعوا التفاعل معه ، فترتد بعض القبائل وتمنع الزكاة التي تحسبها جزية مذلة ، وتتجمع منهم أوشاب، وهي موجودة في كل أمة . ليقتلوا عثمان رضي الله عنه ، لأنهم لم يفهموا الإسلام إلا على أنه سلب ونهب وغنيمة.

.. وكيف نتوقع أن تدخل أمة بأكملها مثل الفرس في الإسلام ، وهي أمة ذات ملك وسلطان طويل وعريق ، وكانت احدى أقوى امبراطوريتين تسيطران على العالم القديم - ألا يكون فيها من يحقد على الإسلام وأهله ممن لم يدخل الإيمان في قلبه ، وهو لا يتصور الأمر إلا أنه مجرد صراع بين جنسين على الملك ، كيف لا نتوقع من الأمراء والوزراء والكهنة التي عاشوا قروناً يستعبدون الناس ويذلونهم أن يتقبلوا هذا الامر بسهولة ، دون أن يكيدوا كيداً . . ! . وكيف ننتظر من شعب اعتاد عدة قرون على ان ينظر لملوكه على أنهم آلهة يجري في عروقهم دم إلهي ولهم طبيعة خاصة مقدسة ، أن يتحول فجأة الى شعب مسلم يرى الحاكم واحداً من الناس ثم لا يكون فيهم - أو حتى كثير منهم - من لا يتقبل هذا الامر ولا يستوعبه ، فيكون تأليه علي رضي الله عنه، في قليل منهم، ثم يكون ادعاء العصمة له ولبعض نسله في الكثير منهم ، لقد كان المجتمع الإيراني - كما يذكر صاحب كتاب ايران في عهد الساسانيين - مؤسساً على اعتبار النسب والحرف ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه ولا يستشرف لما فوقه ، وكانوا كما يقول الطبري ومكاريوس في تاريخ ايران «ينشدون الأناشيد بألوهية ملوكهم ويرونهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر»[1] . .

---

(١) أبو الحسن الندوي . ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤٠ وراجع : ايران في=

.. وكيف نتوقع من أمة مثل الترك لم تنل في جاهليتها حظاً يذكر من التهذيب أو التمدين ، ولم تطلع في سمائها شمس الوحي فيما نعرف مرة واحدة ، ألا يكون منها في الإسلام أناس جفاة قساة غلاظ ، لا ينفذ الإسلام إلى أعماق قلوبهم ولا يرفق حواشيهم .

.. ثم كيف لا تمتلىء نفوسنا في نفس الوقت إعجاباً بهؤلاء العرب والفرس والترك ممن نفذ الإسلام إلى اعماقهم ، وتخطى كل هذه الحواجز ، وصنع منهم هذه النماذج الإنسانية الرفيعة التي قامت على اكتافها الوحدة الإسلامية الإنسانية الجامعة عبر العصور . ؟ !

.. إن الوحدة التي أرسى قواعدها رسول الله ﷺ على قاعدة قرآنية . لم تتفكك بعد الخلافة الراشدة ، وإنما قاومت واستمرت وصمدت ، وما تزال قائمة صامدة حتى بعد سقوط دولة الخلافة رسمياً على يد عدو الله كمال أتاتورك عام ١٩٢٤ ميلادية ، وبعد سقوط غالبية بلاد العالم الاسلامي في قبضة الاستعمار الغربي . . . وأكبر دليل على ذلك هذه الصحوة الاسلامية التي نشاهدها اليوم ، وكما قلت في مقال نشرته مجلة الدعوة القاهرية(١) حول هذا الموضوع «يخطىء من يظن ان هذا الوعي الاسلامي قدظهر بالمصادفة ، أو اندفع من العدم ، لأنه لا شيء في حياة الأمم ، بل لا شيء في هذا الوجود كله يأتي من المصادفة ، أو يندفع من العذم ، لأن كل شيء في هذا العالم بقدر وبمقدار من مقدر الأقدار سبحانه وتعالى . كذلك كل شيء في حياة الأمم إنما يأتي بقدر وبمقدار وبناء على أسباب ومسببات منها ما نعلم منه شيئاً ومنها ما لا علم لنا به ، فالأحداث دائماً تأتي كنتيجة لظروف أو مسببات تعمل

عهد الساسانيين ، أرثر كريستنسن . الفصل السابع .

(١) مقال : هذا الشباب ثمرة كفاح أمتنا عبر القرون ، وقد أعيد نشر هذا المقال ضمن مجموعة مقالات موجهة إلى الشباب في كتيب تحت عنوان : حذار انهم يحضرون الأخدود : عن طريق المركز الإسلامي للدراسات والبحوث والدعوة ـ دار الأنصار ـ القاهرة .

بتوجيه من المشيئة الإلهية لإمضاء قدر الله على الوجه الذي أراده الله . وقد تكون الظروف غامضة ، والأسباب غير مفهومة ،لكن ذلك الغموض، وعدم الفهم لا يعني أن الأشياء تروح وتغدو كما يحلو لها دون ضابط أو حساب . . فالوعي الذي تشهده الأمة الاسلامية اليوم لم يأت من فراغ ، وإنما هو تعبير عن استمرار الأمة التاريخي من جانب ، وثمرة الجهاد المتواصل عبر القرون من جانب آخر .

عملية طمس الذاكرة : .

ولقد تعرضت الأمة المسلمة لأكبر عملية خداع تاريخية يقصد بها طمس ذاكرتها ، حتى يسهل قطع حاضرها عن ماضيها ، فلا تعود تذكر إلا هذا الحاضر المتفسخ العاجز الذليل فتيأس، وتغلب على أمرها وتستسلم للواقع . لقد حيل بين هذه الأمة وبين تاريخها الحقيقي بأسلوب علمي ذكي مخطط ومدروس. وفي نفس الوقت وضعت بين بعضها البعض حواجز وفواصل تحول دون التعرف على التجانس الذي تتمتع به هذه الأمة رغم الظروف السيئة التي تعيشها . لقد كانت خطة طمس الذاكرة ذات شقين : الشق الأول : تحريف التاريخ ، والشق الثاني : تعميق الفواصل والحدود .

الشق الأول : تحريف التاريخ :

لقد قامت مراكز الأبحاث التاريخية في الغرب بأكبر عملية تزييف للتاريخ الإسلامي ، وتولى عملية التزييف هذه جيش من المستشرقين المتخصصين في دراسة الإسلام واللغة العربية والتاريخ . ولم يحدث قط في أي فترة من فترات التاريخ أن تعرض تاريخ أمة لمثل هذه العملية المنظمة والمكثفة من التزييف وهي العملية التي تمثل واحدة من أبشع الجرائم التي ارتكبها الغرب الاستعماري في حق المسلمين خاصة والبشر عامة . ولكي تؤدي هذه العملية أهدافها في طمس ذاكرة المسلمين ، ولكي تستمر هذه العملية بعد غياب الاستعمار ظاهرياً ، قام المستشرقون بتربية أجيال من

المسلمين على هـذا التاريـخ المحرف ودفعهم إلى المـراكز المتقـدمة في الجامعات . . وذلك ليقوم المسلمون أنفسهم على تدريس ذلك التاريخ المحرف ، وأصبحت أقسام التاريخ ، في كثير من الجامعات في العالم الاسلامي لا تعرف غير ذلك التاريخ ولا تتعاطى سواه على الرغم من رحيل المستشرقين الذين انشأوا هذه الأقسام في البلاد التي سقطت تحت سيطرتهم الاستعمارية ووضعوا لها خطط الدراسة والبحث . ولقد قام الأساتذة المسلمون أنفسهم في البلاد التي تأثرت بالخطط الاستعمارية بتبني هذا التاريخ المحرف إلى درجة جعلتهم يقاومون كل محاولة لتصحيح هذا التخريف . . لقد قبل هؤلاء دون وعي هذا التاريخ المحرف باعتبار أنه يمثل الحقيقة التاريخية للعالم الاسلامي ، وقبلوا معه واقع التجزئة والتشرذم على أنه هو نفسه الحقيقة التاريخية لهذا العالم . .

الشق الثاني : تعميق الفواصل والحدود :

عمد الاستعمار كذلك في البلاد التي سقطت في قبضته إلى تعميق الفواصل والحدود ، حتى أصبحت الحدود الإقليمية بين أجـزاء العالم الاسلامي التي نكبت بالاستعمار أكثر قسوة من الحدود التي تفصل بين البلاد الاسلامية وغيرها من البلاد غير الإسلامية. وكان من أبرز أهداف هذا التعميق إلى جانب أهداف كثيرة أخرى طمس معالم التجانس الذي تتميز به الأمة المسلمة على اختلاف أقاليمها ، وتباعد ما بينها ، ثم دفع هذه الوحدات المتشرذمة لتصنع لنفسها تاريخاً خاصاً يقضي على هذا التجانس نهائياً ، ويعمل على نمو أعراف مستقلة وتقاليد وعادات خاصة تنمو مع الزمن تحت ستار القومية الخاصة ، ليصبح لكل وحدة من هذه الوحدات عرفها الخاص ، وعاداتها وتقاليدها الخاصة ، وبذلك تنقطع الصلة بينها وبين الوحدات الاسلامية الأخرى ، وتفقد الأمة المسلمة تجانسها ، وبالتالي تضيع وحدتها إلى الأبد .

تجانس الأمة الاسلامية يفرض نفسه : .

ورغم هذه المحاولات للقضاء على تجانس الأمة وتفتيت وحدتها فإن تجانس هذه الأمة كان أقوى من كل محاولات التجهيل والتمزيق وذلك لسببين : أولهما: أن العوامل التي حققت هذا التجانس لم ينقطع عملها بتحريف التاريخ ، وزرع الحدود لأن هذه العوامل لا تكمن فقط في الوحدة السياسية او المشاركة التاريخية وإنما تكمن أساساً في النمط التربوي الذي وضعه الله في الإسلام ليقوم بدور ثابت ومستمر في صيانة هذا التجانس ، فالمسلمون على اختلاف اقاليمهم يلتزمون نهجاً مشتركاً يوجه عقولهم وحياتهم وجهة مشتركة حتى وان انقطع التواصل بينهم فالعبادات في الإسلام ليست مجرد شعائر يؤديها المسلم للعبادة ، وإنما هي أيضاً أسلوب فذ لتحقيق تجانس الأمة والمحافظة على وحدتها ، ووحدة وجهتها، فَالصلاة والصيام والحج ، وشعائر التحية والأعياد وتلاوة القرآن واستماعه كلها وسائل لتحقيق تجانس الأمة وبناء وحدتها .

ثانيهما : أن تجانس الأمة الاسلامية قد استقر وثبت عبر مئات السنين من خلال الممارسة المشتركة لنمط واحد مشترك من أنماط الحياة الاجتماعية . ولقد وقف الرحالة الغربيون مشدوهين أمام هذا التجانس العجيب الذي تتمتع به الأمة الاسلامية والتي تتكون من أصول وأعراق وأجناس مختلفة ، والتي تتوزع في مساحة شاسعة في بيئات جغرافية متباينة في مناخها وتضاريسها، وعلى الرغم من كل عوامل الاختلاف والتنافر فقد حققت هذه الأمة تجانساً مدهشاً سجل ملامحه الرحالة المسلم أبو عبدالله محمد بن بطوطة في القرن الثامن الهجري الموافق للرابع عشر الميلادي وذلك في كتابه : (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، وهذا الكتاب هو تسجيل لرحلات خلال العالم الاسلامي استغرقت ستاً وعشرين سنة ، ضرب فيها ابن بطوطة في طول البلاد الإسلامية وعرضها، بدأ من المغرب الى تونس وليبيا

ومصر والعراق وإيران والأناضول وشبه جزيرة القرم ، ثم شمالاً إلى روسيا حتى قرب مدينة كييف ، ثم عبر بلاد القوقاز الى أذربيجان ثم بلاد ما وراء النهر ، ثم افغانستان فالهند ، ومنها إلى جزر مالدريف إلى الجنوب الغربي من جزيرة سيلان ثم جزيرة سيلان ، ومنها الى بلاد البنغال ثم الملايو ثم الصين ، وفي طريق عودته مر بسومطرة متجهاً الى شرق افريقيا فزار زنجبار ثم اخترق افريقية الاستوائية والمدارية، ووصل إلى تمبكو ثم عبر الصحراء الكبرى إلى المغرب الأقصى من الجنوب ، ومنها مراكش فمدينة فاس حيث ألقى عصا التسيار ، وجعل يتحدث عن رحلاته العجيبة ، وأمر السلطان المريني أحد كتابه بأن يستملي ابن بطوطة وصف الرحلة ويسجله . . في هذه الرحلة يقرر ابن بطوطة : أنه لم يشعر في أي بلد من هذه البلاد التي نزلها على كثرتها وتباعدها أنه غريب ، ولم يجد أي صعوبة في دخول بلد أو في التعامل مع أهلها والاختلاط بهم، بل إنه تزوج أكثر من مرة وخلف وراءه في بعض هذه البلاد أزواجاً وأهلاً . .

احساس الأمة المسلمة بوحدتها : .

على ان الامر ليس مجرد تجانس اجتماعي فرضته وحدة التعاليم الاسلامية التي يلتزمها المسلمون جميعاً على اختلافهم ، وعلى اختلاف ما بينهم ، وإنما الأمر يتجاوز ذلك إلى إحساس المسلمين العميق بوحدتهم السياسية الجامعة رغم انقسامهم عملياً إلى دول وممالك ، ورغم عمليات التقسيم والتجزئة التي فرضت عليهم . لقد كان المسلمون عشية اصطدامهم مع الغرب الاستعماري الحديث موزعين بين خمس دول رئيسية هي : الأمبراطورية المغولية في الهند ، والدولة الصفوية في فارس والدولة المملوكية في مصر والحجاز والشام ، والدولة العثمانية في تركيا وآسيا الصغرى ، والدولة السعدية في المغرب ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان إحساس المسلمين بوحدتهم الجامعة أقوى من أن تحده هذه التقسيمات السياسية التي

تقوم على أساس الصراع على السلطة بين الحكام ، ذلك الصراع الذي كان من أعظم أسباب شقاء هذه الأمة وضعفها ، لكن هذا الصراع بكل آثاره السيئة لم يقضِ على احساس المسلمين بوحدتهم ، واكبر دليل على ذلك أنه ما أن يتهدد العالم الإسلامي خطر خارجي داهم حتى تراهم جميعاً يتنادون للتوحد أمام هذا الخطر ، متجاوزين ما بينهم من خلافات ، ولو أن إحساس قادة المسلمين بوحدة الأمة المسلمة كان على مستوى إحساس الأمة نفسها بهذه الوحدة لتغير اتجاه التاريخ تغيراً أساسياً لصالح المسلمين ، وأبرز مثل على ذلك هو موقف المسلمين من تقسّيم الدولة العثمانية .

تقسيم الدولة العثمانية يشعل النار في العالم الإسلامي : .

فلقد أثبتت هذه الأمة في أسوأ الأحوال ان إحساسها بوحدتها هو من أكبر عوامل استمرار وجودها وبقائها، ولقد كان اتفاق الغرب على تقسيم الدولة العثمانية صاعقة اشعلت الحريق في العالم الأسلامي كله . وكان من أكبر البلاد اشتعالاً بلاد لم تخضع يوماً لسلطان الدولة العثمانية ، ولنترك بعضاً من شهود العيان الغربيين أنفسهم يسجلون هذه الظاهرة ، نقل شكيب ارسلان في حاضر العالم الاسلامي عن أحد الكتاب الفرنسيين قوله «إن العالم الاسلامي بات لا يعترف بحدود املاكنا الاستعمارية ، والعاقل الذي يريد اعتبار الحقيقة لا يعجبن من ذلك أقل عجب ما دامت الدعوة الكبرى التي نشرها ورفع علمها جمال الدين في المسلمين تسير سيراً دراكا» .

ولقد وصف سيرتيودر موريسون غليان المسلمين في الهند وغيرها بقوله : « لقد حان وأيم الحق للأمة البريطانية أن تعتبر وتتدبر خطورة ما هو جار في الشرق ، فإن العالم الإسلامي أجمع ليعج غضبا ، ويحتدم حنقا من جراء تجزئة تركية . وما هذه اللوامع النارية التي تبدو في كابل والقاهرة الا البرق الذي تتلوه الرعود القواصف فالصواعق المزلزلة . إني قد أقمت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت في خلالها المسلمين حق المعرفة ، وأرى من

الواجب الآن أن انذر أمتي البريطانية بشر عقبى هذا الثوران الإسلامي الناشىء عن تجزئة تركية التجزئة المنوية ، فإن ساسة مؤتمر فرسايل قد خالوا تركية في الأناضول منقطعة عن سائر العالم الإسلامي ، فليس من شعب يغضب لها ، ولا من أمة تغار عليها ، فما أسوأ هذا الخيال الباطل والوهم القاتل، فمن شاء البرهان فلينظر الى هذه الوفود الاسلامية العديدة الحالّة بين ظهرانينا في لندن

فالمسلمون قاطبة في الهند ، من (بشاور) حتى (اركوت) قائمون قاعدون لما يرونه قد حلّ بساحة تركية والمسلمين حتى باتت النساء المسلمات يعولن اعوالا شديدا ، ويبكين حالة الإسلام بكاء الأمهات أطفالهن ،وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة عن مزاولة الشئون السياسية يفرون من حوانيتهم ومتاجرهم خفافا ينظمون وقائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق الى أنحاء العالم ، وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المتقشفين ، المتشددين ، المضروب بهم المثل في شدة انقطاعهم عن جاري الحوادث في العالم ، يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشتركوا في القيام بالتظاهرات والاحتجاجات . لقد كان سقوط الدولة العثمانية التي كانت تمثل في نظر المسلمين ، رغم كل ما دب فيها من فساد وانحلال ، الوحدة الاسلامية الجامعة لهم أمام الغرب ـ فاجعة لهم جميعا ، ولقد تابع المسلمون في كرب عظيم أنباء تقدم الجيوش الأوربية داخل تركيا ، وحين انفتح الطريق إلى استانبول بعد سقوط أدرنة زاد كرب المسلمين ، وسجل شعراؤهم هذا الكرب ، في ملاحم شعرية باقية ليتها تدرس في المدارس ليعرف الأبناء حقيقة وحدتهم الاسلامية ، ومن أروع القصائد التي سجلت مشاعر المسلمين قصيدة شوقي التي يقول فيها :

يا أخت أندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والإسلام
نزل الهلال من السماء فليتها   طويت وعم العالمين ظلام

ثم يقول فيها وفي الأندلس :

بكـما أصيب المسلمون ، وفيكـما دفن اليــراع وغيب الصمصـــام
لم يـطو مـأتمهـــا . وهـذا مــأتم لبسوا السواد عليـك فيه وقـاموا

فهل لأحد بعد ذلك أن يشكك في حقيقة هذه الوحدة ، وفي عمق إحساس المسلمين بها رغم ما هم فيه ، إن هذه الوحدة قائمة وسوف تظل كما قال أحد الساسة الانجليز ـ باقية ما بقي في يد هذه الأمة هذا الكتاب : أي كتاب ربها ، وإنه لباق فيها حتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

خاتمة

... بعد هذا التفنيد الموجز للشبهات التي ثارت حول تاريخ المسلمين السياسي والحضاري ، وحول الوحدة الإسلامية وحول اسهام المسلمين الإيجابي في بناء العلم والمنهج العلمي ...

... وبعد هذا التفنيد الموجز للشبهات التي ثارت حول علاقة الإسلام بالعقل ، وموقف الاسلام من الفلسفة ومن المنطق ، وبعد عرض الدور المجيد الذي قام به أئمة المسلمين انتصارا للعقـل ، وللحريـة الإنسانية ، وللمنطق السديد ، وللمنهج العلمي ...

... وبعد رسم الخطوط العريضة والأساسية لما يجب أن يكون عليه منهج البحث ومنهج التفسير للتاريخ الإسلامي ....

... وبعد أن عرضت للوحدة الإسلامية التي قامت وثبتت واستمرت وسوف تستمر رغم كل الضغوط وأنواع الحرب الخفية والمعلنة التي شنت وتشن عليها منذ قيام دولة الإسلام ..

... بعد كل هذا فلعله قد وضح أن جميع الموضوعات التي تناولها البحث تحتاج إلى إعادة البحث فيها ودراستها دراسة وافية مفصلة في ضوء الحقائق التي قدمتها .

وأظن أنه قد آن الأوان ليولي المسلمون شئونهم بأنفسهم ويأخذوا زمام أمورهم بأيديهم ، ويفكروا لأنفسهم بأنفسهم .

أظن أنه قد آن الآوان ليتحرر المسلمون من التبعية العقلية والنفسية ، ليستردوا تاريخهم ، ويؤدوا دورهم . .

. . . وأخيرا فإني أتقدم إلى كافة المسلمين الغيورين على دينهم وأمتهم وتاريخهم أن يأخذوا الأمر مأخذ الجد ، وأن يتنبهوا لما يراد بهم وبأمتهم ، وأن يتنبهوا إلى ضرورة كتابة التاريخ الإسلامي كتابة جديدة من مصادره الأساسية الصحيحة ، وبعقول إسلامية واعية مدربة على مناهج البحث على النهج الذي سلكه سلفنا الصالح . .

. . إن بناء مستقبل قوي عزيز لا يقوم إلا على أساس من فهم علمي دقيق وسليم للماضي ، لأن الماضي هو مادة الحاضر ، وأساس المستقبل . .

وماضي الأمة الإسلامية خاصة هو بالمقياس العلمي الصحيح ، وحين يفهم الفهم الصحيح مدرسة كبرى لإلهام الأجيال ، وتزويدها بخير زاد لمستقبلها . .

وتاريخ الإسلام والمسلمين كما يقول د. فتحي في خاتمة الأضواء هو « أجدر تاريخ في الإنسانية بأن يرجع به إلى نصوصه السليمة التي عرف رواتها بالصدق والدين والمعرفة وعروبتهم الوثيقة ». .

ولقد اعترف المؤرخون الغربيون المنصفون بأن من أكبر جنايات المؤرخين الغربيين المتعصبين هي تجاهلهم فضل هذا التاريخ ، وقد نقل صاحب الأضواء عن محب الدين الخطيب في هذه المسألة ما يلي : « يقول (ول ديورانت) في مقدمة كتابة (قصة الحضارة) : « إن السيادة الأوربية تسرع الآن نحو الإنهيار وإن من أعظم أخطاء الغرب تجاهله فضل الشرق واندفاعه بالتعصب الإقليمي إلى نمط الشرق في فضائله وحيويته وانتعاشه ، وإصراره على كتابته التقليدية للتاريخ بأن يبدأ قصة الحضارة من اليونان ، ويكتفي بالحديث عن آسيا كلها في سطر واحد ». .

ثم عقب على ذلك قائلا « ومن العجيب أن المئات من الأساتذة

والمدرسين الجامعيين عندنا قرأوا هذا الاعتراف من هذا المحقق المنصف ثم لا يزالون رابطين مناهجنا بعجلة هؤلاء الذين شكا (ديورانت) من تعصبهم الذي سيؤدي بهم وبسيادهم إلى الانهيار .

ثم يستمر قائلا : « وفي المؤتمر الدولي للعلوم التاريخية الذي انعقد من ١٤ إلى ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٨ بمدينة (أوسلو) من بلاد النرويج حاضر الأستاذ (بيرن) في موضوع (الفتوحات الإسلامية وبداية العصور الوسطى) فكرر دعوته التي أعلنها في المؤتمر الدولي الخامس إلى اعتبار ظهور الاسلام هو خاتمة العصور القديمة وبداية إيقاظ الإنسانية في أول عصورها المتوسطة ، لأن احتكاك الغرب بالاسلام هو الحد الفاصل بين شطري التاريخ القديم والمتوسط ، وحينئذ بدأت أوربا الغربية تكون مدنية جديدة وحياة جديدة يجب معها اعتبار هذا الحادث هو بداية العصر المتوسط . .

وفي ذلك المؤتمر التاريخي نفسه حاضر الأستاذ روبري في « نشأة الاستكشافات الجغرافية والأسباب الباعثة عليها » فأعلن أن احتكاك الصليبيين بالمسلمين واستيلاء المسلمين على مفاتيح التجارة الشرقية هما السبب المباشر لبدايةعصر الاستكشاف الذي يعتبر بداية العصر الحديث . .

إذن فإن ظهور الاسلام باعتراف الأستاذ بيرن هو الشرارة الأولى التي انتهت بها العصور القديمة وأشرق بها على الإنسانية نور جديد ، واحتكاك أوربا بالمسلمين هو الذي انتهت به عصور أوربا المتوسطة وبدأ تاريخها الحديث . . .

إن تعصب الأوربيين ـ على ما اعترف به (ديورانت) في « قصة الحضارة » حملهم على كتمان كثير من الحقائق المتعلقة بالشرق والإسلام ، ومن النادر أن نسمع شيئا من هذه الحقائق على ألسنة المنصفين منهم ، ولكن هل ستبقى جامعاتنا ومؤلفونا مرتبطين بعجلة الغرب في تقرير الإتجاه لتاريخنا ، وهل سيبقى تعليمه مبتورا ومشوها لأبناء الجيل من الجامعيين ؟ .

وهل سنبقى مخدوعين بالدسائس التي دستها الطوائف القديمة وصناد الشعوبية وأعداء الإسلام من الذين تظاهروا بالانتساب إليه ، فشوهوا تاريخنا ، مع أن في نصوص علمائنا وأعلامنا ما يصححها ويزيل الغشاوة م أعيننا فنرى جمال تاريخنا كما كان ينبغي لنا أن نراه ؟ »[1]

.. وإني أضم صوتي الى أصوات شيخنا محب الدين الخطيب رحمة الله عليه . وفتحي عثمان ، وكل مخلص رفع صوته منبها ومذكرا ومحذرا ومنذرا ، وأقول إلى متى سيظل هذا السكوت والتجاهل ممن يملكون القدرة على التغيير ؛ .. وإلى متى سنظل نقرأ تاريخنا بعيون من لم يكن لهم هدف في الماضي والحاضر غير تشويه تاريخنا ، وهدم ديننا ، والقضاء على أمتنا ؟

... ترى هل آن الأوان لنتنبه ونذكر ونحذر ثم نعمل على تغيير هذا المنكر بذلك المعروف الذي بقي لنا من تراث سلفنا الصالح ..

أرجو ذلك ، وليس على الله بمستبعد أن يهيىء لهذه الأمة من أمرها رشدا ، إذا تنبهت العقول ، وحفزت الهمم . والله المستعان .

(١) محب الدين الخطيب ـ مجلة الأزهر ـ رجب سنة ١٣٧٢ هـ ـ مارس ١٩٥٤ .

مراجع وردت الإشارة إليها في ثنايا البحث

١ ـ الأحكام السلطانية ـ أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (٤٥٠هـ)ط٢ ـ مصطفى الحلبي ـ القاهرة (١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م) .

٢ ـ الأسس الجمالية في النقد الأدبي ـ د. عز الدين اسماعيل ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٥٥ م .

٣ ـ الإسلام والحضارة العربية ـ محمد كرد علي . جزءان ط ٣ ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٨ .

٤ ـ أضواء على التاريخ الإسلامي ـ فتحي عثمان ـ دار العروبة ـ القاهرة .

٥ ـ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ـ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (٦٦١ ـ ٨٢٨) ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ دار الباز للنشر والتوزيع ـ مكة المكرمة .

٦ ـ الإنسان ذلك المجهول ـ ألكسس كاريل ـ تعريف شفيق أسعد فريد ـ مؤسسة المعارف ـ بيروت .

٧ ـ ايران في عهد الساسانيين ـ آرثر كريستنسن ـ ترجمة يحيى الخشاب ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٧.

٨ ـ بسيط علوم الحديث ـ محمد نجيب المطيعي .

٩ ـ تاريخ الطبري ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ)

تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط ٢ ـ دار المعارف ـ القاهرة .
١٠ ـ التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ـ الزبيدي ـ محمد علي صبيح ـ القاهرة ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م .
١١ ـ تلبيس إبليس ـ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي (سنة ٥٩٧ هـ) ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة .
١٢ ـ التفسير الإسلامي للتاريخ ـ د. عماد الدين خليل ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .
١٣ ـ التفسير القرآني للتاريخ ـ د. راشد البرادي ـ دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٧٣ .
١٤ ـ التفكير الإجتماعي ـ د. زيدان عبد الباقي ط ٢ ـ دار المعارف القاهرة .
١٥ ـ الحركات السرية في الاسلام ـ د. محمود اسماعيل ـ روز اليوسف القاهرة ١٩٧٣ .
١٧ ـ حاضر العالم الإسلامي ـ لوثروب ستودارد ـ ترجمة عجاج نويهض ـ تعليق شكيب أرسلان ـ مجلدان ـ دار الفكر ـ بيروت .
١٨ ـ الحضارة في الميزان ـ أرنولد توينبي ـ ترجمة أمين الشريف الحلبي ـ القاهرة .
١٩ ـ دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر محمد الجرجاني (٤٧٩ هـ) . المنار ـ القاهرة .
٢٠ ـ ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه ـ دار احياء التراث العربي ـ بيروت .
٢١ ـ الرد على المنطقيين ـ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ـ (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ) ـ إدارة ترجمان السنة ـ لاهور ـ باكستان .
٢٢ ـ شمس العرب تسطع على الغرب ـ زيغريد هونكة ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت .

٢٣ ـ عبد الملك بن مروان والدولة الأموية ـ د. محمد ضياء الدين الريس ط ٢ ـ القاهرة ١٩٦٩ .
٢٤ ـ العقد الفريد ـ أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (٣٢٨ هـ) تحقيق محمد سعيد العريان ط ٢ ـ ثمانية أجزاء ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة ١٣٧٢ ـ ١٩٥٣ .
٢٥ ـ علم أصول الفقة ـ عبد الوهاب خلاف ط ١٠ ـ دار القلم ـ الكويت ، ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .
٢٦
٢٧ ـ العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ـ إميل بوترو ـ ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٣ .
٢٨ ـ عالم الفكر ـ مجلد ٣ ـ عدد ٤ مارس ١٩٧٣ .
٢٩ ـ علوم الحديث ومصطلحه ـ د. صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .
٣٠ ـ العواصم من القواصم ـ أبو بكر بن العربي ـ تحقيق محب الدين الخطيب ـ لجنة الشباب المسلم ـ القاهرة .
٣١ ـ فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٣ ـ القاهرة ١٩٣٥ م .
٣٢ ـ في المعرفة التاريخية ـ أرنست كاسيرر ـ ترجمة أحمد بن حمد محمود . دار النهضة العربية ـ مصر .
٣٣ ـ الكامل في التاريخ ـ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير (٦٣٠ هـ) ـ دار صادر ـ بيروت ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م .
٣٤ ـ المدخل إلى الثقافة الإسلامية ـ د. محمد رشاد سالم ط ٣ ـ دار القلم ـ الكويت .
٣٥ ـ المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ـ ليون جوتييه ـ ترجمة محمد يوسف

موسى ـ دار الكتب الأهلية ـ مصر .
٣٦ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ط ٦ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٦٧ م ـ ١٣٨٧ هـ .
٣٧ ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها ـ عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ـ تعليق محمد جاد المولى وآخرين ـ جزءان دار احياء الكتب العربية (الحلبي) ـ القاهرة .
٣٨ ـ مناهج البحث عند مفكري الإسلام ـ د. علي سامي النشار ـ دار المعارف ـ مصر .
٣٩ ـ موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ـ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ) ـ تحقيق محمد محيي الدين وحامد الفقي ـ جزءان ـ مطبعة السنة المحمدية . القاهرة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م .
٤٠ ـ الوحي المحمدي ـ محمد رشيد رضا ط ٨ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت .

الفهرس

القسم الثالث


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

رقم الايداع ٤٢١٤ / ٨٤

دار الفتح الاسلامى للطباعة
٧ شارع خالد بن الوليد أرض اللواء – المهندسين